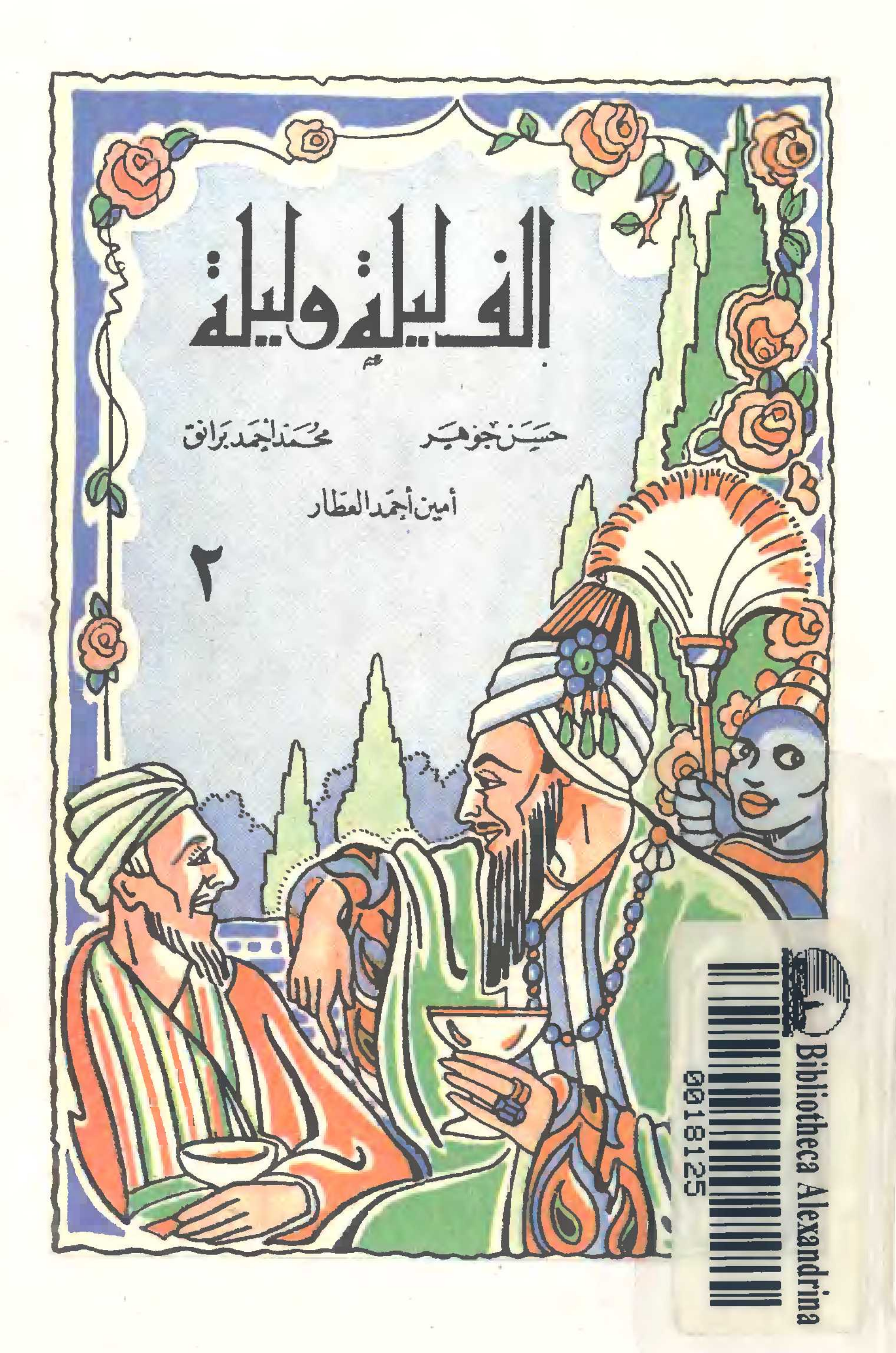


ألف ليلة وليلة
حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار
٢

ألف ليلة وليلة

الجزء الثانى

السندباد البحرى

كتبه

حسين جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية

دار المعارف

رسـوم: الفنـانة النمـساوية سـتيلا يـونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



السندباد البحري

كانَ بمدينةِ بغدادَ رجلٌ فقيرٌ ، رقيقُ الحالِ ، يُقالُ له السِّنْدِبادُ ؛ وكان يَشْتَغِلُ حَمَّالاً ، يَستأجرُهُ الناسُ في حَمْلِ أحمالِهم ومتاعِهم ، نظيرَ أجرٍ يَجُودونَ به عليه ، قَلَّ ذلك الأجرُ أو كَثُر .

فاتّفقَ في يومٍ اشتدَّ حرُّه أنه كان يَحملُ لبعضِ الناسِ حِملاً ثقيلاً ، أجْهَدَه وأرْهَقَه ، حتى بلغَ منه التعبُ مَبلغاً كبيراً ؛ ومرَّ في أثناء سَيرِه بمنزلٍ كبيرٍ فخمٍ ، شامخِ البُنْيانِ ؛ يَنطقُ شُموخُه بِغِنَى أصحابِه ، وتتحدَّثُ فخامتُه ونظافتُه وأناقتُه برَفاهيتِهم ، وبكثْرةِ خدَمِهم وحَشَمِهم ، وبما هُم فيه من عزٍّ ونَعيم . وكان على جانبِ البابِ مصطبَةٌ طويلةٌ ، عريضَةٌ ، نظيفةٌ ، ظَليلةٌ ؛ تتهدَّلُ عليها فروعُ الأشجارِ ، وتجري أمامها قناةٌ من الماءِ العذْبِ ،

ويجْرِى فى جوِّها الهواءُ الرطبُ، والنّسيمُ العَليل ؛ وتَصدحُ فوقَ أشجارِها الأطيارُ . فحملَهُ تَعبُ السّيْر ، وإجهادُ الحمل الثّقِيل ، وجَمالُ المكانِ ، على أنْ يستَريحَ بعضَ الوقتِ ؛ فوَضعَ حِملهُ فوقَ مصطَبةٍ بجانبِ بابِ المنزِل ، وجلسَ إلى جوارِه يُجفّفُ عرقَه الذى يتصبّبُ من وَجههِ ، ولم يَلبثْ أن هبَّ عليهِ نسيمٌ لطيفٌ ، سَرى إليه من بابِ المنزلِ الكبير يَحْمِلُ رائحةً طَيبةً ذَكيةً ، أنعشَتْ نفسَهُ ، وردّتْ إليهِ راحتَه ، ونفذَتْ إلى أُذنِهِ أنغامٌ موسيقيّةٌ شجيةٌ مختلفةٌ ، تصدَحُ بشتّى الألحانِ ؛ فاسْتطابَ مجلسهُ ، وأطالَ جلوسَه فيهِ يَسْتروِحُ نسيمَهُ ، ويستنشِقُ شذًا عبيرِه ، ويُنصتُ إلى ما يتردّدُ فيه مِن صدى الأنغام .

ثم لم يملِكْ نفسَه ، فرفعَ طرْفَه إلى السماء ، وقال : سُبحانكَ رَبّى ! إنى أَسْتغفِركَ ! وأتوبُ إليكَ ، لا إله إلا أَنتَ ، ما أعظمَ شأنَكَ ! وأقوى سُلطانَك ! وأجلَّ قُدرتَك ! وأحسنَ تدبيرك ! تُعطِى من تَشاء ، وتحرِمُ مَن تشاء ، وتعزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تَشاء ، فنَعِمَ ناسٌ وشقِىَ آخرون ؛ وَمنْ عبادِك منْ هو مُستريحٌ متنعمٌ : يتَمَتعُ برغيدِ العيشِ ، ويرفُلُ فى الثيابِ الفاخِرة ، ويتلذذُ بالمآكل الطيبةِ ، والأشربةِ الهنيئةِ . يَستظِلُّ بأطيبِ ظلّ ، ويفىء إلى خير فَىء ، كصاحبِ هذا المكانِ ؛ ومنْهم من هُو شقىٌّ تعسٌ مِثلى : يقاسِى التعبَ ، ويتحملُ المشاقَّ ، ويتقلبُ فى شظَفِ العيشِ ، ويتجرّعُ كأسَ البؤسِ ، مُهلهلَ الثيابِ ، حافِى القدمين ، تحرِقهُ الشمسُ بشُواظِها ، ومعَ ذلك لا يجدُ طعاماً شهياً ،



ولا مَناماً مُريحاً، ولا يَظفَرُ من الناسِ بكلمةٍ طيبةٍ ، أو نظرةٍ راضيةٍ .
سبحانَكَ ربى ! لا اعْتراضَ على حُكمِكَ !

ولمّا فرغَ من مناجاةِ نفسهِ نهضَ من مَجلسِهِ ، واستخارَ اللهَ ، وحملَ حملَه وهم بالمسيرِ — ولم يكدْ يحركُ قدمَهُ حتى رأى غلاماً جميلاً ، يرتدى ملابسَ ثمينةً ، خرَجَ إليهِ من بابِ المنزلِ وأمسكَ بيده ، وقال له : سَيّدِى يَدعوكَ إلى الدخولِ إليه ، لأنه يُريد التحدثَ إليكَ . فتحيّرَ الحمالُ فى أمرِه ، وأخِذَ أخذاً شديداً ، وتردّدَ بين الامْتناعِ عن الدّخولِ وتلبيةِ دعوة الغلامِ ، ولـكنّ الغلامَ لم يتركْ له فرصةً طويلةً للترددِ ، فإنه جرّهُ إلى دهليزِ الدارِ ، ووضعَ عنه حِمله فيه ، وقادَه إلى الداخلِ ، فلم يكدْ يتجاوَزُ الدهليزَ حتى وجدَ نفسه فى بُستانٍ واسعٍ فَسيحٍ ، به أشجارٌ كثيرةٌ ، تدلتْ فروعُها ، وتشابكَتْ أغصانُها ، وتفتّحتْ أزهارُها ، ونَضِجتْ أثمارُها ، وورِفَ ظلُّها ؛ ورأى ماء يجرى متدفّقاً فى قنواتٍ مستقيمةٍ ومتعرّجَةٍ ، يُروِى منه البُستانيون الأشجارَ ، فيُنعش الحياةَ فى شجرِها وزهرِها وثمرِها . ثم نظر الحمالُ بين الأشجارِ ، فرأى طيوراً جميلَة ، من قُماريَ وهزارٍ وشحاريرَ وبلابِلٍ وكَروانٍ ، سَمِعها تصدَحُ هنا وهُناك ، فتبعثُ أصواتُها أنغاماً مختلفةً شجيةً ، يختلِطُ بعضُها ببعضٍ ، فيتألّفُ منها جميعِها لحنٌ عذبٌ جميلٌ ، تفرح له النفسُ وينشرحُ القلبُ .

ثم نظرَ أيضاً فوجدَ غِلماناً كثيرِين ينتشرونَ فى أرجاء البستانِ ،

كلٌّ منصرفٌ إلى عملِه ، فهذا يُقلِّمُ الشجرَ ، وذاك يقطفُ الزهرَ ، وثالثٌ يجمعُ الثمرَ ، وهكذا رأى كلَّ غلامٍ يعملُ ، وهو مُقبلٌ على ما كلِّفَ من عملٍ .

وبينما هُو يتأملُ فيما يرى حائراً مشدُوهاً مستعجباً ، إذْ أحسَّ أن ذلكَ النسيمَ الجميلَ الذى يحملُ إلى قلبِه عبيرَ الأزهارِ، قد اختلطَ به رائحةُ الشواءِ والقديدِ ، فَسالَ لها لُعابُه ، وتحلَّبَ فمُه ، وتوائبتْ أمعاؤُه ، لشدةِ ما بِهِ من جوعٍ ، وتمنّى أن لوْ نالَ منها شيئاً قليلا أو كثيراً ، ولكنّه لم يلبثْ أن انتبَه لنفسِه ، وأخذ يفكرُ في حالِه ، فوجَمَ ، وأطرقَ مفكِّراً متحيراً في السببِ الذى دَعا صاحبَ تلك الدارِ الفخمةِ إلى استدْعائِه ، وهو رَجلٌ حمالٌ ، لا حاجة به إليه ، فإنَّ عندَه من الخدمِ والحشمِ والغِلمانِ ما يُغنِيه .

لم يدَعْه الغلامُ في ذلكَ التفكيرِ طَويلاً ، ولكنه عجّلَ به ، وقادَهُ إلى مجلسٍ فيه رجالٌ تبدو عليهم العظمةُ والوقارُ ، مُدّتْ أمامَهم مائدةٌ حفَلتْ بصنوفٍ مختلفةٍ من الأطعمةِ اللذيذةِ ، والأشربةِ الشّهيةِ ، والفواكهِ النادرةِ .

فتملَّكَ الحمالَ العجبُ مما رأى من مَظاهِرِ الفخامةِ والعزِّ والثروة ، وخُيِّل إليه أنه في جَنّةٍ من الجِنان ، أو بحضرةِ ملكٍ أو سُلطان ! وأشار إليه الغلامُ أن يتقدم ، فتقدّمَ إلى الجالسين في هُدوءٍ واستحياء ، وخُشوع وتأدّبٍ ، مُطرِقاً رأسَه ، لا يمدُّ عينيه إلا إلى قدَميه ، ولا تَكادُ رجلاه

تحملانه مما به من اضطراب وحيرة ، وألقى عليهم السلامَ بصوتٍ خافتٍ مُتَهدّج ، لا يكادُ يُسْمعُ ، وإذا سُمِع فإنه لا يكادُ يُفهَمُ ، لاختلاطِ نبراتِه بعضِها ببعض ، ولولا إشارةٌ خفيفةٌ من إحدى يديهِ ، وانحناءةٌ خفيفة من رأسِه وصدرِه — لما عَرفَ الناسُ أنه يُسلِّم .

وكان يتصدَّرُ المجلسَ رجلٌ وسَطٌ، قد وَخَط الشيبُ عارضيْه ، يرتَدي ثياباً فاخِرةً ، تحوطُه المهابةُ ، ويحفُّهُ الجلالُ ، وما كادَ يرى الحمالَ داخلاً وهو خائفٌ وجلٌ حتى هشَّ له ، ودعاهُ إلى الجلوسِ بجانبه ، فجلسَ الحمالُ متأدِّباً ، وقد أدركَ أن هذا الرجلَ الكريمَ هو صاحبُ الدار .

وأخذ صاحبُ الدار يرحِّبُ بالحمالِ ، ويؤْنسهُ بالحديثِ ، لِيُذهبَ عنه الوحشةَ ، وقدَّمَ إليه ألوانَ الطعامِ ، وأخَذَ يحثُّه على تناوُلِها ، وما زالَ به حتى اطمأنتْ نفسُه ، وسكن روعُه ، وأقبلَ على ما بيْنَ يديْه يتناولُه ، وقد أنْساهُ هيبةَ المجلِس ، ووحشةَ الغربةِ — إيناسُ الرجلِ ، ثم لذةُ الطعامِ ، وشدةُ الجوعِ .

ولما فرغ الحمالُ من الطعامِ شكر ربَّه على ما أنعم به عليه ، وشكرَ صاحبَ الدارِ ورفاقَه على حُسنِ استقبالِهم ، وجميلِ ترحيبِهم ، وعلى حفاوتِهم به ، وإجلاسِه معَهم على طعامٍ واحدٍ ، برغمِ التفاوُتِ العظيمِ بين مرتبتِه ومرتبتِهم .

فأخذَ صاحبُ الدارِ ورفاقُه يُحدِّثونه حتى اطمأنَّ إليهم ، وهدأتْ

نفسُه ، واطمأنَّ قلبُـه ، وجاراهمْ في الحديث ، وارتفعت الـكلفةُ بينهم وبينهُ .

ولما رأى صاحبُ الدارِ ما داخله من الهدوء والاطمئنانِ سألَه :

ما اسمُك يا فتى؟ وما صناعتُك ؟ . فقال الحمالُ :

يا سيدى ؛ اسْمِي السندبادُ . وصناعتي حمّال ، أحْمِلُ حاجاتِ الناسِ نظيرَ أجرٍ ضئيلٍ ينقدونني إيّاهُ ، وأعيشُ منه . فابتسمَ صاحبُ الدارِ وقال :

يا للعجبِ! يا سِندبادُ ، إن اسْمكَ مثل اسمِي؛ فأنا اسْمِي السندبادُ البحريّ.

يا أخي السندباد ، سمعتُك وأنتَ جالسٌ على المِصطبَةِ خارجَ الدارِ تحدثُ نفسَكَ شيئاً من الحديث ، وتُعبِّر عن خَطْرةٍ مرتْ بك بكلامٍ لطيفٍ جَميلٍ ، تعجبُ فيه من ذلك النظامِ الذى جعلَه اللهُ بين الناس ، فلم يُسوِّ بينَهم ، ولـكنهُ فضَّلَ بعضَهم على بعضٍ ، وجعلَهم فى الرزقِ درجاتٍ؛ فيبسُطه لمن يَشاء ، ويقدِرُه على من يَشاء .

سمعتُ هذا الـكلامَ يا أخي السندباد فأعْجبنِي ، فهل تَستطيعُ أن تُعيدَه علينا ، لنسمَعهُ مرةً أخرى؟ .

استَحْيا الحمالُ ، وخَجِلَ خجلاً شديداً ، وتوسّلَ إلى الرجلِ أن يُعفيَهُ من ذلك ، فألَحَّ عليه ، فقال له :

باللهِ عليكَ يا سيدى لا تُؤاخِذْنى ، فإن التّعبَ والمشقةَ ، وضيقَ ذاتِ اليدِ — تدفَعُ بالإنسان أحياناً إلى سَفيهِ القَوْلِ .

فقال السندبادُ البحريُّ : لا تَثْريبَ عليكَ ، فإنكَ سَمِيِّي ، وقد اتخذتُك

أخًا ، فأعدْ على أسماعِنا هذا الكلامَ حتى يطربَ هؤلاء الإخوانُ ، كما طربتُ أنا حينَ سمعتُه منك ، فقد تأثَّرتْ له نفسِى ، واهتزتْ مشاعرِى .

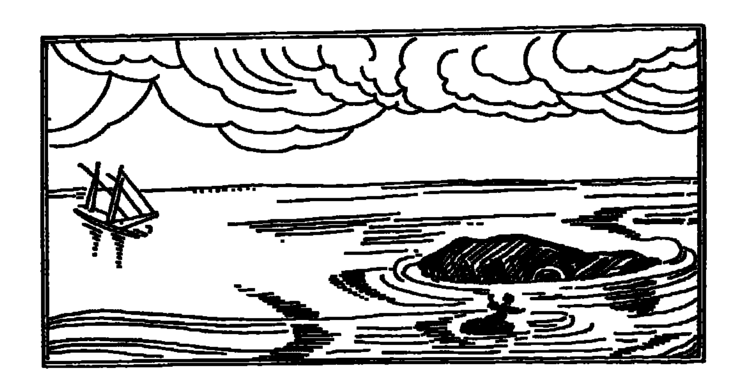
فأخذ الحمالُ يُسمعُهم والقومُ مُصْغُون إليه فى سرورٍ ، حتى إذا ما فرغَ قال صاحبُ الدارِ :

ياحمّالُ ؛ إن لى قصةً طويلةً عجيبةً ، وسوف أقصُّها عليكَ حتى تعلمَ ما لقيتُه من تعبٍ ، وما قاسيتُه من أهوالٍ ، قبلَ أن أصِلَ إلى هذه المنزلةِ من المالِ ، والغِنَى ، والثَّراء ، والنعيمِ ؛ وقبل أن أجلسَ فى هذا المكانِ الذى تَرانى فيه راضىَ العينِ ، ناعمَ البال ، هادئَ النفسِ ، قريرَ العينِ .

فقد سافرتُ فى سبيل العُلا سبعَ سفراتٍ ، وكل سفرةٍ لها قصةٌ ، وفى كلّ قصةٍ عجائبُ وغرائبُ ، إذا حدثتُك عنها ضاق صدرُك عن تصديقِها ، وخُيِّلَ إليكَ أنّ مُحدِّثَك ساحرٌ ، أو كاهنٌ ، أو مجنونٌ . وهى فى الحقيقةِ أمورٌ شاهدتُها ، وعقباتٌ صادفتُها ، وأهوالٌ لاقيتُها ، وكثيراً ما كنتُ أقفُ أمامَها حائراً ؛ ولكنَّ اللهَ يسِّرُ كلَّ عسيرٍ ، ويُسهلُ كل صَعبٍ ، وقد كتب لى فيها التَّوفيق ، وما التوفيقُ إلا من عندِ الله .

وبقدرِ ما لَقيتُ من أهوالٍ وصعابٍ — كان فضلُ اللهُ علىَّ بما أسبغَ من نعيمٍ وعزٍّ ، وثراء وغِنى ؛ فالراحةُ لا تصلُ إليها إلا على جِسر من التَّعب .

ورَغبَ أكثرُ الحاضرين فى الاستماعِ إليه ، وألَحُّوا عليه أن يَسرُدَ عليهم بعضَ ما لقِيهُ فى سفراتِهِ السَّبعِ ، فقال :



السَّفْرَةُ الأولى

اعلموا، يا سادة، أنَّ أبي كان تاجراً من كبارِ التجار، وكان غنيًّا يملكُ كثيراً من الأموالِ والضِّياعِ والعقارِ، وقد ماتَ وأنا حَدَثٌ صغيرٌ وخلَّفَ لي ثروةً عظيمةً. فلما كَبِرْتُ، ووضعتُ يدي على هـذه الثروةِ غرَّتني مَباهجُ الدُّنيا، وخدعتْني زينتُها، فاندفعتُ إليها، وأطلقتُ العِنانَ لشبابي، وأخذتُ أستمتِعُ بكلِّ ما يمكِنُ أن يُسْتَمتَعَ به، غيرَ مبالٍ شيئاً؛ وظَللتُ أُبعثرُ هنا وهناك، وأُنفِقُ على نفسِي وعلى مَنْ أحاطُوا بي من رفاقِ السُّوءِ، وأخلاءِ الشيطانِ.

أخذ المالُ يتناقصُ شيئاً فشيئاً — على كثرتِه — حتى فَنِيَ، وجبالُ الكُحْلِ تُفنيها المراوِدُ، فأطلقتُ يدِي فيما أملكُ من ضياعٍ وعقارٍ، وأخذتُ أبيعُ منها، وأُنفِقُ على نفسِي وعلى أصحابي حتى نفدَ كلُّ ما أملكُ، ولم يبق

عندى شىء إلّا النَّزْرُ اليسير ؛ فنفرَ منى كلُّ هؤلاء الأصحاب ، وجَفَوْنى وقاطعُونى ؛ فانتبهتُ من غفلتى ، وصحوتُ من سَكرتى ، وتلفتُّ حَولِى فوجدتُ نفسِى وَحيداً ، لا مالَ يُعينُنى على نوائبِ الزمانِ إلّا بقيةٌ من عقارٍ لا تُسمِنُ ولا تُغنى من جُوعٍ . ولا صديق يُواسِينى ، ويخفِّفُ عنى بعض ما بِى من ألمِ الفقرِ ، ومَرارةِ الوَحدة ؛ فصِحتُ : وَاغَوْثاه ! لقد أضعتُ فى اللّهوِ والعَبثِ مالَ أبِى ، الذى قَضى زهرةَ عمرِه فى جَمعِهِ واستثمارِه بالجدِّ والعملِ ، وسرتُ فى طريق الغَىِّ والضلالِ الذى زيَّنَه لى شياطينُ الإنسِ وأحاطُوا بِى ، وأعمَوْا عَينِى عن كلِّ شىء إلاّ ما يستلذُّونه من مُتعٍ حلالٍ أو حرامٍ ، حتى إذا فقدَ مالِى ، وساء حالِى — انفَضُّوا من حَوْلِى ، وتركونى فريسةَ الأوهامِ والظُّنون ، فريسةَ الفقرِ والبُؤسِ والألمِ ، فريسةَ الوَحْدةِ والشُّرودِ ؛ وَاغَوْثاه ! وَاغَوْثاه ! وبعد أن عَتبتُ على نفسِى ما اتسع لى العَتْبُ ، وبَكَيتُ ما أسعفَنى البكاء — أخذتُ أُعملُ الفِكْرَ لعلّنى أصِلُ إلى رأىٍ أُنقِذُ به نفسِى ، وأخلِّصها من هذه الحَمْأةِ التى قذفتُ بها فيها وأعلو باسمِى واسمِ أبِى الذى كِدتُ أن أعُقَّ عليه . فتذكَّرتُ قولاً لأبِى كنتُ أسمعُه يردِّدُهُ ، وهو :

ثلاثةٌ خيرٌ من ثلاثةٍ : يومُ المماتِ خَيرٌ من يومِ الميلادِ ، وكلبٌ حىٌّ خيرٌ من سَبُعٍ ميتٍ ، والقبرُ خير من الفَقرِ . فصمّمتُ على العملِ والجهادِ وعقدتُ العزمَ على الكَدِّ والكَدْحِ ، وخطرَ ببالِى السفرُ والسياحةُ للتجارَةِ بين الأقطارِ والأمصارِ ، وعرفْتُ أنّى بقدرِ ما أبذلُ من جهدٍ

وبقدر ما أحتملُ من تعبٍ — يكون نجاحي في الحياةِ، وكسبي لخيرِها وميّرِها؛ فطالبُ اللآلئِ لا يحصلُ عليها إلا إذا غاصَ في الماء ونزلَ إلى قرارِ البحارِ، وكذلك طالبُ المالِ لا يَصِلُ إليه، ولا يحصلُ عليهِ، إلا إذا تَعبَ وجدَّ، واستسهلَ الصعبَ، وسَهِرَ الليالِي، واستقام، وصاحبَ خِيارَ الإخوانِ، واستعانَ بالصالحِينَ منْهم، وخاصَمَ شِرارَ الناسِ، وبعُدَ عنْهم، وفرّقَ بين السليمِ والأجربِ. حدّثتْ نفسي هذا الحديثَ فاطمأنّتْ إليهِ، وارتاحَتْ له، فاستخرتُ الله، وبعتُ البقيةَ الباقيةَ لي من العقارِ، واستعنتُ برأيِ بعضِ التجارِ الذين اعتادوا الأسفارَ، وركوبَ البحارِ في شراء ما يلزمُني للتجارةِ من أسبابٍ، واشتريتُ ما أشارُوا به عليَّ، ثم رافقتُهم في المركبِ، وانحدرْنا إلى البَصرةِ.

خرجنا إلى عرضِ البَحرِ، وسرنا فيه الأيّامَ والليالي في ريحٍ طيّبةٍ رُخاء، وجوٍّ رائقٍ صحوٍ، ومررْنا بجزيرةٍ بعد جزيرةٍ، وجُزْنا من برٍّ إلى برٍّ، وكنّا كلما مررْنا بمكانٍ بِعْنا واشترَيْنا وقايَضْنا بما معنا من بضائعَ، حتى مررْنا بجزيرةٍ كأنها روضةٌ من رياضِ الجنةِ: ماء وأنهار، وظلٌّ وأشجارٌ وأزهارٌ وأثمارٌ، وحمائمُ وأطيارٌ؛ وأمرَ صاحبُ المركبِ بإلقاء مراسيهِ بجانبِ الجزيرةِ. فأُلقيتْ المراسي، ومُدَّ مَعبرٌ من السفينةِ إلى الشاطىء فعبرَ جميعُ الركابِ عليه، وتفرقُوا في أنحاء الجزيرةِ: فمنهمْ من أوقدَ ناراً وصارَ يطهُو ما صادَه من طَيرٍ، ومنهم من أخذَ يقتطِفُ مما نضجَ من ثمارِها،

ومنهم من سارَ متفرِّجاً فى أنحائِها ، ومنهم من بلغ منه التعبُ مبلغاً عظيماً فاستلقَى على عُشبِها يتفيأُ ظلَّها .

وكنتُ أنا من الذين سارُوا فى أنحاء الجزيرة يجوسُون خلالَها ، فسرتُ أتأمّلُ جمالَ مشاهدِها ، وبديعَ صُنْعِ اللهِ فيها . وبينما جميعُنا فى أكلٍ وشربٍ ، ولهوٍ ولعِبٍ ، إذ بكبيرِ البحارَة يَصيحُ بأعلَى صوتِهِ قائلاً :

يا رُكابَ السفينةِ ، أنشدُوا السلامةَ ، والتمسُوا النجاةَ ، واتركُوا أسبابكُم وما أنتُمْ فيه ، وبادِرُوا بالصُّعودِ إلى المركبِ ، لتسلَموا بأنفسِكم من الهلاكِ ، فإن هذه الجزيرةَ التى أنتمْ عليها ما هِىَ بجزيرَة ، وإنما هى سمكةٌ كبيرةٌ ، رسبتْ فى وسطِ البحرِ من أزمانٍ طويلةٍ ، وعُهودٍ سحيقةٍ فتراكَمتْ عليها الرمالُ ، وجرى فيها الماء ، ونبتَتْ فيها الأعْشابُ والنباتاتُ وأوتْ إليها الأطْيارُ — فبدتْ كالجزيرةِ المونِقةِ المعجبةِ ، فلما أوقدتُم عليها النيرانَ ، وسرت فيها الحرارةُ — أحسَّتْ وتحركَتْ ، وبعد قليلٍ ستغُوصُ بكُم فى البحرِ ، وتغرقُون جميعاً ؛ فأسرِعُوا وبادِرُوا بالنجاةِ بأنفسِكم .

فما سمعَ الركابُ هذا النذيرَ ، حتى بادَرُوا إلى السفينةِ مسْرعين ، مخلِّفين وراءهم حوائجهُمْ ومتاعَهم : فمنهم من استطاعَ الصعودَ إليها ، ومنهم من لمْ يستطِع ، فغاصتْ بهم الجزيرةُ المزعومةُ إلى قرارِ البحرِ ، وطوتْهُم بين أمواجِه ، وكنتُ أنا بين المتخلِّفين الذين لم يُدركوا السفينةَ ، فسقَطتُ بين أمواجِ البحرِ المتلاطِمةِ المغرقةِ ، وظللْتُ أكافِحُ الموجَ ، وأصارِع الموتَ فى هذا البحرِ العجاجِ ، حتى قيَّضَ اللهُ لى قطعةً

من الخشبِ ، فتشبَّثْتُ بها واعتليْتُها ، وأخذتْ أَدْفعُ الأمواجَ بها ، كأنّها مجدافان ، وعَيْنى ثابتَةٌ فى السَّفينة الْمُقْلِعةِ ، أَسْتغيثُ ولا مُغيثَ ، فإن مَنْ عليْها لم يلتَفِتُوا إلى مَنْ خلَّفُوهم وراءهم يغرقُون ، فرحاً بنجاتِهم بأنفسِهم وأروَاحِهم ، وظلَّت السفينةُ تبتَعِدُ عنى رُويْداً رويْدا ، وعَينى مُتَعلِّقَةٌ بها تعلُّق الهالكِ بخيطِ الحياة ، حتى أضحتْ نقطةً سوداء فى عرضِ الأُفقِ.
حينئذٍ انطفأ أمامى شعاعُ الأملِ ، وأيقنْتُ أنْ لا مفرَّ من الموتِ غرقاً ، ولا مهرَبَ من أن يكُون قاعُ البحرِ لعظامِى قبراً . فوهنَتْ عزيمَتِى وضعفَتْ أعصابِى ، واسترخَتْ أعضائِى ، واستسْلمتُ لمصيرِى المحتُوم ، وتركتُ نفسِى مُلقًى فوقَ لوحِ الخشبِ تتقاذَفُنى الأمواجُ ، وتطوِّحُ بِى هُنا وهُناكَ ، حتى لَفَّنِي الليلُ بسوادِهِ ؛ ومرَّ الليلُ ثم جاء النهارُ ، وانقضَى اليومُ الثانى كما انقضى اليومُ الأول ، تلعبُ بِى الأمواجُ وتتقاذَفُنِى ، وأنا مستسلِمٌ لا حولَ لى ولا قُوّة ، فازدادتْ نفسِى يأساً ، وماتتْ أطرافى ، وسكنَتْ عن الحركةِ ، وتبلَّدَ حِسِّى ، وصرْتُ لا أشعرُ بمرورِ الزمَنِ علىَّ . وفجأةً شعرتُ بشىءٍ يصدمُنِى ، فانتَبهْتُ من ذُهولِى ، وأحسَسْتُ شعوراً خَفيًّا يشحذُ حواسِّى ، ويجدِّدُ عزمِى ، ففتحتُ عيْنِى ، وتطلَّعتُ حوْلِى ، فرأيتُنى بالقربِ من شاطِئ جزيرةٍ عاليةٍ ، باسقةِ الأشجارِ ، تَتدلَّى أغصانُها إلى البحرِ ، ورأيتُ ما صدمَنِى ، فإذا هو شجرةٌ ، فتجدَّدَ عندى الأملُ ، ودبَّتْ فى جسمى الحياةُ ، وجاهدتُ ، فأمسكْتُ بالغصنِ المتدلى ، وتعلقْتُ به ، وظللتُ أجاهِدُ وأناضِلُ مستمِدًّا من حُبِّى

للحياةِ قوةً ، ومن شغَفِي بالنَّجاةِ عزيمةً ؛ فأفلحتُ في الخروجِ إلى أرضِ الجزيرةِ ، وما كدتُ أطؤها حتى وجدتُ رجْلَيّ ثقيلتَينِ خدِرتَيْن ، ورأيتُ آثارَ نهشِ السمكِ بأخمَصَيْهما ، فارتميْتُ على الأرضِ ثقيلاً ، ثم غبْتُ عن وُجودِي .

وظلِلْتُ فاقداً رُشْدِي ، حتى أرسلتْ شمسُ النهارِ حرارتَها عليّ ، ففتحتُ عيني ، وكافحتْ تصلُّبَ أعضائي ، حتى استطعتُ الجلوسَ ، فوجدتُ قدمَيّ الداميَتيْن قد تورّمتا ، فلم أستطِع النهوضَ عليهما ، ورأيتُ من حولِي أشجارَ الجزيرةِ محملةً بالثمارِ الكثيرة ، والفواكهِ الناضجةِ ، ورأيتُ عيونَ الماءِ العذبِ تجرى بينها . فتحاملتُ على نفسِي ، وأخذتُ أزحَفُ ، حتى استطعتُ أن أنالَ ما يُمسِكُ رمَقِي من فاكهةٍ ، وأشربَ ما يُروى جسمِي من ماء ، واستمرّ بى الحالُ كذلك عدةَ أيامٍ ، أزحَفُ أو أحبُو كلما ألحّ عليّ الجوعُ ، وزقزقَتْ عصافيرُ بطني ، فإذا وصلتُ إلى بعض الفاكهة ، وإلى مجرى الماء — أكلتُ وشربتُ ثم استلقيتُ ؛ فلما انتعشَتْ نفسِي ، وقويتْ رُوحي ، واستردَّ جسمى بعضَ نشاطِه ، صنعْتُ لنفسي عصاً من فروعِ الأشجارِ أتوكّأُ عليها ، وأستعينُ بها على السيرِ حتى تُشْفَى قدماى .

وبينما أنا يوماً سائرٌ ، وقد توغّلْتُ في أحدِ جوانب الجزيرة — لاح لى شبحُ حيوانٍ قُرب شاطىء البحر ، فظننْتُ أنه حيوانٌ من حيوانات البحر ، فاقتربتُ منه أتفرّجُ عليه ، فوجدتُه فرساً عظيما مربوطًا في شجرةٍ ضخمةٍ ، فعجبتُ من ذلك أشدَّ العجبِ ، وأحس بى الفَرسُ ، فصهلَ

صَهْلةً عظيمة ارتعبْتُ لها، وأردتُ الرجوعَ، ولم أكَدْ أفكّر فى الرجُوعِ حتى خرجَ رجلٌ من مكانٍ تحتَ الأرض فرجعتُ فَزِعاً من حيثُ أتيتُ فصاحَ علىَّ الرجلُ ، وتَبِعنى ، وقال لى : من أنتَ ؟ ومن أينَ جئتَ ؟ وكيف وصلت إلى هذا المكانِ ؟

فتوقَّفْتُ عن المَسيرِ ، وقلتُ له: ياسيِّدى ؛ إنى رجلٌ غريبٌ، وكنتُ فى مَركبٍ ففرقْتُ أنا وبعضُ من كان فيه ، فرزقنى اللهُ قطعةَ خشبٍ ركبْتُها ، وظلّت الأمواجُ تلعبُ بى ، وتتقاذفُنى ، حتى طرحتْنى فى هذه الجزيرة .

فأخذَ الرجلُ بيدِى ، وقال : تعالَ مَعِى .

فسرتُ معه ، فنزلَ بى إلى سِرداب مُظلمٍ تحتَ الأرض ، ودخَل بى إلى حُجرةٍ ينتهى إليها السردابُ ، وأجلسنى فيها ، وأتى لِى بشىء من الطعامِ ، فأكلْتُ حتى اكتفيْتُ ، وأحسَسْتُ شيئاً من الاطمئنان يُداخلُ نفسِى حينما لقيتُ هذا الرجلَ ، وارتحتُ لمُصاحَبتِه . وأتى الرجلُ وجلس بجانبى ، وسألنى عن حالِى ، فقصَصْتُ عليه قصتى كاملةً من المبتدأ إلى المنتهَى . ثم قلت له :

لقد أخبرتُك بكلِّ ما حصَل لى ، فباللهِ عليكَ — يا سيدى — إلّا أخبرتنى بحالِكَ ؛ وما سببُ جلوسِكَ فى تلك القاعةِ التى تحتَ الأرضِ ؟ وما سببُ ربْطِك الفرسَ على شاطئِ البحر ؟

قال الرجلُ : اعلم أننا جماعةٌ متفرقُون الآنَ فى جوانبِ هذه الجزيرة ، ونحن سُوّاسُ الملك المهرجان ، وخَيّالتُه ، وتحت أيدينا جميعُ خيلِه ، وفى

كل شهرٍ عند اكتمالِ الفجرِ نأتى بالأفراسِ الجيادِ ، ونربُطها على شاطئ الجزيرة قربَ البحرِ ، ونختفِى فى قاعاتٍ تحتَ الأرض ، فتجىء خيولٌ من خيولِ البحر على رائحةِ تلك الأفراس ، وتخرجُ إلى البرّ ، وتتألفُ أفراسَنا ، حتى تأنَسَ إليها ، فتختلطُ بها ، ثم تريدُ أخذَها معها فلا تقدِر أن تتبعها لإحكامِ الوثاقِ ، فتصيحُ عليها ، وتُحَمْحِمُ لها ، وتضربُها برأسِها ، وترفسها برجليها ، فنسمع نحنُ صوتَها ، فنخرجُ عليها صارخِين ، فتخافُ منا ، وتجفلُ ، وتنزلُ فى البحر ، وتكونُ الأفراسُ قد حملتْ منها ، فتلدُ بعد ذلك مِهاراً لا يوجدُ لها نظيرٌ على وجهِ الأرضِ ، ولا تُقَدرُ قيمةُ المهرِ منها بمال ؛ وأنا جالسٌ الآنَ فى انتظار خروج الخَيْلِ من البَحْرِ ، وسأصْحبكَ معى — إن شاء اللهُ — إلى الملكِ المهرجان ، وأريكَ بلادَنا ، ولولا أننا لقيناكَ الآن ما كنتَ لتُقابِلَ أحداً فى هذه الجزيرة ، وما كنتَ لتستطيعَ الرجوعَ إلى بلادِك أبداً .

فأخذتُ أشكرُه ، وأحمَد اللهَ الذى هيأ لِى لقاءه .

وما مضتْ إلا فترةٌ قصيرةٌ ، حتى خرجت الخيلُ من البحرِ ، وصرخَتْ صرخةً عظيمةً ، وحمحمتْ ووثبَتْ على الأفراس ، وأرادتْ أخذَها معها ، فلم تقدِرْ ، فرفستْ وصاحتْ عليها ، فأخذ الرجلُ السائِسُ سيفاً ودِرْعاً وخرجَ من القاعةِ ، وهو يَصيحُ وينادِى على رفاقِه : اخرجُوا إلى الحصن يا رِفاقُ .

وأخذ يضرِبُ بالسيْفِ على الدرَقة ، وسرعان ما جاء رفاقُه مسرِعين



وبأيديهم الرِّماحُ ، وهم يَصرخُونَ ويَصيحونَ . فجَفَلت الحُصنُ ، وعادتْ من حيث أتتْ . وبعد قليلٍ أتى نفرٌ آخرُ من الرجالِ يقودُ كلٌّ منهم فرسَه ، والتفُّوا جميعاً حيث كنتُ أنا وصاحِبى : فلما رأَوْنى مع صاحِبِهم استغرَبوا وسألُوه عَنّى ، فأخبرتُهم بأمرى .

ثم إنهم أحضَروا طَعاماً ، وجلسُوا جميعاً حوْلَه ، ودعوْنى إليه ، فجلستُ آكلُ معهم ، وبعد أن فرَغُوا رِكبوا الأفراسَ واصطَحبُونى مَعهم .

وما زِلْنا سائرين حتى وصلْنا إلى مدينةِ الملك المهرجان ، ودخَل السُّواسُ إليه ، وأخبرُوه بقصتى ، فطلبَنى ، فلما مثَلتُ بين يديْه ، رحَّبَ بى ، وسألنى عن حالى ، فأعدْتُ عليه قصتى ، فلما فرغْتُ منها قال لى :

يا وَلدِى ، لقد قاسيتَ كثيراً من الشدائدِ والصِّعاب ، ولولا لطفُ اللهِ ، وطول أجلِك — ما نجوْتَ منها . فحمداً لله على سلامَتِك .

وأمر لِى الملكُ بكساء فاخر ، وعيَّنَنى عاملًا على الميناء ، وكاتباً أُحصِى كلَّ ما يمرُّ فيه من سُفُنٍ ، وأجبِى ضرائبَ الملِك .

وأخلصْتُ للملِك فى العمَلِ ، فأحبَّنى ، وقرَّبَنى منه ، وصرتُ مقدَّماً عنده فى الشفاعاتِ ، وقضاء مصالِح الناس .

ومكثْتُ فى هذه البلادِ زَمناً طويلاً ، وأنا لا أفتأُ كلما مرّتْ سفينةٌ بالميناء أسألُ بحّارتَها، وأستفهِمُ من رُكّابِها ، عمَّنْ يعرِفُ الطريقَ إلى بَغداد ، فلم يدلَّنى أحدٌ ، برغمِ كثرةِ الوافِدين على هـذه البلاد من مُختلِف الأقطارِ والأجناسِ والأديان .

وأخذَ الأملُ فى إمكان عَوْدتى لبلادِى يضعُفُ فى نفسِى شيئًا فشيئًا ، حتى انقلَبَ يأسًا ، وكنتُ سئِمْتُ هذه الغُرْبةَ الطويلةَ ، وحننْتُ إلى وَطنى ، واشتَقْتُ إلى أهلى وَوَلَدِى ؛ ولم يطفِئْ اليأسُ نارَ الحنينِ إلى الوطَن ، والاشتياق إلى الأهلِ والولد .

قال السندبادُ لسامِعيه :

وقد رأيتُ فى هــذه الفترةِ كثيراً من العجائبِ والغرائبِ مما لو روَيتُه لــكم لطالَ بنا الــكلامُ .

فقد رأيتُ مثلا سَمكاً طُولُ الواحدةِ مِائتا ذراع ، كما رأيتُ سمكاً وجهُهُ مثل وجهِ البُوم ، ورأيتُ أقواماً لهم عاداتٌ وتقاليدُ غاية فى الغرابةِ والعجبِ .

وأخيراً أتى يومُ الفرج ، فَبينَما أنا واقفٌ يوماً على شاطِيء البحرِ ، أقبلتْ سفينةٌ كبيرةٌ ، وألقتْ مراسِيها فى الميناء ، وأخرجَ البحارة جميعَ ما بها من أنواعِ البضائعِ ، وأسبابِ التجارةِ — إلى البرِّ ، وأنا أحصِيها وأكتُبُها . وبعد أن انتهَيْتُ سألتُ صاحبَ السفينةِ ، وكنت أحسَسْتُ فى نفسِى أنى رأيتُ هذا الوَجْهَ من قَبلُ .

هل بَقِى شىءٌ آخرُ من البضائعِ ؟

فقال : لم يَبْقَ معِى غيرُ تجارةٍ كانتْ لرجلٍ تاجرٍ ، وغَرِقَ منَّا فى البحرِ ، فهى وَديعةٌ لدينا ، وقــد عزَمنا على بَيعِها ، وحَملِ ثمنِها إلى أهلِه بمدينةِ بغداد .

فقلت للرّئيسِ ، وقَدْ بعثَ اسمُ بَغداد رعشةً فى جَسدِى : وما اسْمُ هذا الرجلِ صاحبِ البضائع ؟ .

فقال : اسمُه السندباد .

فلما سمعتُ اسمِى دقَّقْتُ النظرَ فى وجهِ الرجلِ فعرفْتُ فيه رَئيسَ المركَبِ الذى كنتُ عليه ، فصحْتُ به صيحةً عظيمةً ، وقلت له :

يا رئيسَ المركبِ ، ويا كبيرَ البّحارةِ ؛ إنّنِى أنا السندباد ، وأنا صاحبُ البضائع التى معكَ ، ثم أخذتُ أقصُّ عليها القصةَ من وقتِ أن كنّا على ظهرِ السمكةِ التى ظَنَنَّاها جزيرةً إلى أن نجّانِى الله ووصَلْتُ إلى هذا المكانِ .

فهزّ الرئيسُ رأسَهُ متأسّفاً وقال : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ! ما بَقِى لأحدٍ ذمةٌ ولا ضميرٌ! فقلتُ له مُندهِشاً : ولِمَ هذا القولُ يا سيّدِى ؟ !

فقال : لأنكَ سمعتَنِى أقول : إنّ معى بضائعَ غرِقَ صاحبُها ، فأردتَ أن تأخذَها بلا حَقٍّ ، لقد رأيناهُ يغرقُ مع جماعةٍ من الركابِ ، وما نجا منهم أحَدٌ .

فقلت له : يا سيّدِى ، اسمعْ قصّتِى ، وانتبِه لكلامِى ، فما أنا بكاذِبٍ ولا منافِقٍ؛ ثم أعدْتُ عليه قصّتى من حين خروجِنا من بغداد حتى غَرِقْنا وذكرتُه ببعض أمورٍ حصلَتْ بينى وبينَه .

عند ذلك تحقّقَ الرجلُ صدقِى ، وأيقنَ أنى أنا السندبادُ ؛ وأتى بعضُ

التجارِ من رِفاقى فعرفونِى ، وفرِحوا بى، وعانَقتهُم وعانقُونِى، وهنئُونى بالسلامَةِ . وقالوا :

والله إننّا ما كنا نصدّقُ أنكَ نجوتَ من الغرقِ ، ولـكن ، لقد وهبَ اللهُ لكَ عُمراً جديداً ، وصدَق المثلُ : أعطِنِى عُمراً وارْمِنِى فى البحر .

ثم أخرجُوا لى بَضائِعِى ، فوجدتُ اسْمِى مكتُوباً عليها ، وهى كاملةٌ لم ينقصْ منها شىء ، ففتحتُها ، وأخرجتُ منها بضائعَ نفيسةً غاليةَ الثمن ، وحملْتُها إلى الملكِ المهرجان هديةً منّى إليه ، وقصصْتُ عليه قصةَ المركبِ ، وقصةَ بضائِعِى التى وصلت إلىّ سليمةً ، فتعجبَ الملكُ من ذلك غايةَ العجبِ ، وظهرَ له صِدْقى فى جميع ما أخبرتُه به ، فبالَغَ فى إكرامى ، ووَهبَ لى هِبَةً عظيمةً نظير هَدِيَّتِى .

وبعتُ بعد ذلك بضائِعِى فى المدينةِ ، وربحْتُ فيها رِبحاً كبيرا ، ثم اشتريْتُ بضائعَ أخرى من منتجاتِ تلكَ البلادِ ، ثم ذهبْتُ إلى الملك وشكرْتُه على فَضلِه علىَّ ، وإكرامِه لى ، واستأذَنْتُه فى السفرِ إلى بلادِى وأهلى ، فأذِنَ لى ووَدّعَنى وأعطانِى عَطايا أُخرى جَزيلة .

وسافرَ بنا المركب وساعدتْنا الرياحُ مـدةَ سفرِنا الطويل ، حتى وصلْنا بعونةِ الله سالمين إلى البَصْرةِ .

وما كان أشد فرَحِى حين وَضعتُ قدمَىّ على أرضِ الوطَنِ . وأقمتُ

بالبصرةِ وقتاً ، ثم رحلتُ إلى بغداد ، دارِ السّلام ، ومَعِى من الأحمالِ شيءٌ كثيرٌ عظيم القيمة .

ولا تَسألُوا عن فرحِ أهلِي وأصحابِي بعودَتِي ، فإنهم لقُونى خَيْرَ لِقاء ، ورحبُوا بِي أكْرَمَ ترحيب ، ووجدتُهم كما تركْتُهم إلا ما كان من تقدُّمِ السِّن ، والتَغيّرَ القليلِ فى الشكلِ والسَّمْتِ . واشتريتُ لى دُوراً وعَقاراً واتخذْتُ خَدماً وحَشَماً ومماليكَ وسَرارِ ، وعادَ إخوانُ السوء ، ورُفقاء الشّر إلى مُعاشرَتِي ومنادَمتى ، وَأَغْوونِي فغَويت ، ونَسِيتُ ما كانَ من أمرِهِم معى ، وما أصابنى من البُؤْسِ والذُّل بسبَبِهم ؛ فرجَعْنا سيرَتنا الأُولى من الانْغماسِ فى اللّهو واللذاتِ ، والاستِمتاعِ بالمآكلِ الطيبةِ والأشربةِ المنعشة ، ولـكن كانَ ذلكَ بِقَدَرٍ .

وهذا ما كانَ فى أول سَفراتى السَّبع .

ولم ينْتهِ السندبادُ البحرى من حديثه حتى كانَ النهارُ قد انْصرمَ ، ومضى جزءٌ كبيرمن الليل؛ ووعدَهمْ أن يَقصَّ عليهم خَبَرَ السفْرةِ الثانيةِ فى جَلْسةٍ أُخرى .

وأمر السندبادُ البحرى ، للسندبادِ الحمال بعشاء فاخر ، فأُعدّتْ له مائدةٌ جمعتْ بين قديد اللحمِ وشوائه ، وصنوفِ الفاكهةِ ، وألوان الفَطائر ، فزحمَ معدتَه بما اشتهى من هـذا الطعامِ الذى كان غايةَ ما يتمنّاه أن يملأَ أنفَهُ برائحتِه التى تفوحُ فى الهواء ، لا أن يملأ معدتَه ، حتى لم يَترُكْ فيهـا فراغاً لمائه ولا لنَفَسه . ثم أمرَ له بمائةِ مثقالٍ ذَهباً . فشكرَهُ الحمالُ ، وأخذ الهِبةَ ، وانصرفَ وهو فى أشدّ العجبِ مما رأى وسمِعَ .

وكان السندبادُ الحمال أميناً ، فإنه عاد إلى حمله الذى كان يحملُه وينوء به وأوصلَه إلى صاحبِه قبل أن يَمضِىَ الليلُ ، حتى يستطيعَ أن يدرك مجلس السندبادِ البحرى ، ليستمْتِعَ بما يقصُّه عليه من أنباء سَفَراته ، وبما عسى أن يتْبَع ذلك من طعامٍ شهىّ ، وماء رَوِىّ .

* * *

وفى اليوم الثانى قصد الحمالُ إلى منزلِ السندباد البحرى فرحبَ هذا به ، ولما اكتملَ جمعُ الأمس من الأصحاب أمر صاحبُ الدارِ بإحضارِ الطعامِ ، وبعد أن تناوَلوه فى جوّ بهيجٍ مَرِح ، ونالوا نصيبَهم من الراحةِ — طلبُوا من السندباد البحرى أن يقُصَّ عليهم ما وَعدهُم به . فقال :



السَّفرَةُ الثانية

لقد أخبرتُكم أمسِ، يا إخواني، أني عُدتُ من تجارتي الأُولى موفورَ الرزقِ، واسعَ الغنى، وأخذتُ أُنفِقُ ما وسعَني الإنفاقُ، وقد تساقطَ حولي الرفاقُ السابقون تساقُطَ الذبابِ على العسلِ، ولكني لم أَحرِمهم ولم أغمرهم، وحاولوا أن يَخدعُوني فلم أنخدع، وزيَّنُوا لِي السوء فلم يَحْلُ في عَيني، لأن هذا المالَ كسبْتُه بعرق جَبيني، ومع ذلك فقد صرفَني الله عنهم بما أودع في نفسي من حب السَّفرِ، والميلِ إلى المخاطرةِ. والرغبةِ الشديدة في مصاحبة التجار، ورُكوبِ الأخطارِ في البَرِّ والبَحر، وزادني رغبةً أن الله نجَّاني في سَفرتي الأولى من المكارهِ، وعدتُ إلى بلدي بمالٍ كثير فتهيأت للرحلةِ الثانيةِ مع التجار زُملائي فأخرجْت جزءاً من مالِي ،

ابتعتُ به ما يلزَمُ للسفر من بضائعَ ، وما يحتاج إليه المُسافرُ من متاعٍ وزَادٍ وخلافِهما ، وقصدتُ إلى الساحِل ، فوجدتُ سفينةً جديدة لها قُلوع من قماشٍ جيد مَتين ، وبها عددٌ كبير من البحارَةِ ، فأنزلتُ حمولتى فيها مع جماعةٍ من التجار ، ثم سافرْنا فى ذلك اليوم نفسِه ، وسارتْ بنا السفينةُ من بَحرٍ إلى بحرٍ ، ومن جَزيرةٍ إلى جزيرة ، وكلما رسَتْ بنا على مدينةٍ نخرجُ إليها ، ونقابِلُ تجارَها ، وأربابَ دَوْلتِها ، ونَبيعُ ونشترِى ، ونقايِضُ ، ثم نَستأنِفُ السَّفَر .

وألقَتْ بنا المقاديرُ إلى جزيرةٍ جميلةٍ كثيرةِ الأشجار ، يانعةِ الأثمار متفتحة الأزهار ، كثيرةِ الأطيار ، وبها كثيرٌ من الأنهارِ الصافيةِ الجارية ، فنزلْنا فيها ، فلم نجدْ بها أحداً ، فأخذْنا نتجوّلُ فى أرجائها ، ونطوفُ فى أنحائها ، مُتفرجين معجَبين .

وقَع بصرِى على عينِ ماءٍ صافيةٍ نبتت حولَها أشجارٌ كثيرةٌ عاليةٌ ، قد تشابكَتْ غصونها ، ونما بجانبِها الوردُ والريْحانُ ، فبدتْ كأنها غرفةٌ جميلة ، سقفُها غصونُ الشجرِ وزهرُه ، وتجرى من تحتِها الأنهار .

لما رأتْ نفسى ذلك المنظرَ الجميلَ البهِيّ تاقتْ إلى الجلوسِ فيه ؛ فجلستُ وأخرجْت طعاماً كانَ معِى فالتَهمْتُه ، وانتعشَتْ نفسى بما هبَّ علىّ من نَسيم رطبٍ عِطْرِىّ الرائحةِ ، وشعرتْ أعضائى بالراحة ، وأحسَسْتُ أنى فى شبه سَكْرةٍ ، فثقُلَ رأسِى ، واسترخَتْ أعضائى ، ثم غلبَنى النومُ ، فنِمتُ .

استغرقتُ في نومٍ طويلٍ عميق، فما استيقظتُ إلا والمكانُ قفرٌ، ليس فيه إنسيٌّ ولا جنّي. فنهضتُ من مكاني أبحثُ عن رفاقي فلم أجدْ منهم أحداً، فجريتُ صوبَ السفينةِ فلم أجدها في مَرساها، فقدْ أقلعتْ بالركابِ جميعاً وخلّفتني في الجزيرةِ وَحِيداً.

وجُنّ جُنوني، وتملكتني ثورةٌ عنيفة، فأخذتُ أبكي وأصيح، وأصرخُ، وألطمُ رأسِي، وأندمُ على ما فعلتُ، فإن الله قد نجاني في المرّةِ الأُولى، وأحسنَ إليّ بما هيّأ لي من فرصَةِ الغِنى والمالِ الكثير، فلِمَ كان هذا الطمعُ والجشع؟! وأيقنت أني هالكٌ لا محالة، إن لم يكُن من وَحشٍ ضَارٍ، أو سَبُعٍ مُفترسٍ، فسيكُونُ من الجوعِ، وبَقيتُ أؤنّبُ نفسِي، وألعنُ تلك الساعةَ التي وَطئَتْ فيها قدمايَ ذلك المكانَ المشئوم، الذي جعلَني أستغرقُ في النومِ فلا أشعرُ بمرورِ الوقتِ، ولا بقيامِ القوم للرّحيل فخلفُوني في الجزيرة دون أن يَفطِنوا لغيابي.

ودُرْتُ في الجزيرةِ كالمجنونِ، لعلّي أجدُ أحداً آنسُ به، وأطمئنُّ إليه، فلا أجد، وكلما ألحّ عليّ التعبُ من كثْرةِ المسير أندُبُ سوءَ حظّي، وظَلامَ مَصيري، بعد أنْ خرجتُ من بلادِي، حيث كنْتُ أنعمُ بين أهلي وأصحابي بأجملِ حياةٍ وأهنإِ عيشٍ وأرغدِه، وأدفعُ بنفسي إلى طُرقِ المخاطِرِ والمهالكِ. وإذا كنتُ قد نجوْتُ في المرةِ السابقةِ بأن قيّضَ اللهُ لي من أخذني إلى البلادِ العامرة، فما في كلّ مرةٍ تسلمُ الجرّة، وهَيهاتَ هيهاتَ أن أجِدَ من يَحمِلُني إليها.

وخطر لى أنْ أصعَد فوقَ شجرةٍ عالية، أستكْشِفُ منها ما حَولَ الجزيرة، فجعلتُ أعْلُو شجرة باسِقةً حتى بلغتُ قِمتَها، وأخذْتُ أنظرُ هُنا وهناك، ويمِيناً وشِمالاً، وأدُورُ بعينِى فى كلِّ ناحية، فلم تقعْ إلا على ماءٍ وسَماء وأرضٍ ورمالٍ وأشجارٍ، وبينما أنا أُدقِّقُ فى النظر لاحَ لى شىءٌ أبيضُ كبيرُ الحجْم، فقدَّرْتُ أنَّ عِندهُ النَّجاةَ، فهبطْتُ من فوقِ الشجرةِ على عَجلٍ، وقصدتُ ناحيةَ ذلك الشبحِ الأبيضِ، وقطعْتُ مرحلةً كبيرةً قبل أن أُشرِف عليه، وما كدتُ أقْتربُ منه حتى رأيته قبةً عظيمة بيضاء، شاهِقةَ العُلو، واسعةَ الدائرةِ؛ فدنوْتُ منها، ودُرْت حولها، فلم أَجدْ لها منْفذاً ولا باباً، وأردْتُ الصعودَ عليها فخانتنى قُواى، ولم أستطِعْ لشدةِ مَلاستِها؛ وكنْتُ كلما حاولْتُ ذلك تزَحْلقَتْ قدماى، وامَّلستْ يَداى، وبعد أنْ يئستُ من ذلك، وضعتُ فى مكان وقُوفى علامةً ثم دُرتُ حولَها، أقِيس مُحيطَها، فإذا هو خمسونَ خطوةً وافِية. وبينَما أنا واقفٌ بجانبِ هذه القُبةِ المَلساء مُتحيرًا فى أمرها، أفكّرُ فى طريقة تمكنُنى من دُخولها أو الصعُودِ عليها — إذْ غامَت الشمسُ وأظلمَ الجوُّ، فظَنَنْتُ أنه قد حجَبَتْها غمامة كبيرةٌ، وتعجبْتُ لذلك أشدَّ العجَبِ لأَنَّ الوقتَ كان صَيْفاً، وسحاباتُ الصيْفِ قليلةٌ، وليستْ دكناء ولا مُعتِمةً، وإذا ظهرتْ فإنها عن قليلٍ تنْقشِع وتزولُ، فرفعتُ رأسى فرأيتُ فى الجو طائراً عظيمَ الخِلقةِ، كبيرَ الجُثةِ، عريضَ الأجنحةِ، وهُو الذى حَجبَ ضوء الشمسِ عن الجزيرةِ، فازددْتُ لذلك عجباً.

وتذكرتُ فى هذه اللحظةِ ما كان يَنقلُه السياحُ من أخبارٍ ، ومن أنَّ فى بعضِ الجزائرِ طائراً عظيمَ الخلقةِ ، يقالُ له الرُّخ ، يزقُّ أولادَه بالأفيالِ ، وعرفتُ أن هذهِ القبةَ البيضاءَ الملساءَ ، ما هى إلا بيضةٌ من بيضِ الرّخ ، وسرعان ما صدمتْنِي هبّاتٌ قويةٌ من الهواء آتيةٌ من تَصْفيقِ جناحَىْ ذلك الطائرِ الضّخمِ الذى هبطَ فوق القُبةِ ، واحتضَنَها ، ونشرَ جناحَيْه حولَها .

تملـكَنى فزعٌ شديدٌ ، وأردتُ الفرارَ من هذا المـكانِ ، خوفاً من أن يَرانى ذلك الحيوانُ الـكاسِرُ ، ولـكنْ إلى أيْنَ المفرُّ ! وهو إذا حوّمَ فى الجوِّ رأى كلَّ شيءٍ فى الجزيرةِ ، ووقعَ بصرُه على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ فيها ، فالهرب لَنْ يُنجينى من أذى ذلك الطائرِ إذا أرادَ بى شرّاً ، ومن حُسنِ حظى أنى وجدْتُه قد هَدأ واستكان ، واستغرقَ فى النومِ ، ورجلاهُ ممدتان على الأرضِ . دَار فى خاطِرى : ماذا لو أوْثقْتُ نفسِى برجلِ هذا الطائرِ القوىِّ الضخمِ ، وسوفَ لا يُحِسّ ، فَيَطيرُ بى ، وينقلنى من هذه الجزيرةِ النائيةِ إلى موقعٍ آخرَ أستطيعُ أن أصلَ منه إلى مكانٍ آهلٍ بالسكان ، لأنهُ لا بد أن يَغْشَى أماكنَ عامرةً فى أثناءِ رحلاتِه ؟!

لم أتوانَ فى تنفيذِ خطتِى ، ففكَـكْتُ عمامَتِى من فوقِ رأسى وثَنيْتُها ، وفتلْتُها حتى صارتْ مثل الحبلِ ، وحَزمتُ بهاوسطى ، وربطتُ نفسى فى رجلِ الطائر ، وأوثقتُ الرِّباطَ .

وقضيتُ ليلتى ساهراً مُوثَقاً برجلِ الطائر ، حتى إذا لاحَ الفجر ،



وبانَ الصباحُ ، انتفض الطائرُ من فوق بيضتِهِ ، وصاحَ صيحةً عظيمة وأقلعَ بى فى الجو ، وما زالَ يعلو ويرتفعُ حتى ظننْتُ أنه وصلَ إلى عَنانِ السماء . وبعد قليلٍ أخذ يتدرجُ هابطاً ، حتى نزل بى إلى الأرضِ ، وحطَّ فى مكانٍ مرتفعٍ عالٍ ؛ وما كدتُ أشعرُ أنى صرتُ فوقَ الأرضِ ، حتى أسرعتُ وفككْتُ الرباط من رجليه وأنا خائفٌ أن يشعرَ بى فينقَضَّ علىّ ، ثم ابتعدتُ عنه وأنا أنتفِضُ وأرتجفُ ، وما كدتُ أفعلُ ، حتى رأيتُه قـد طارَ ، وانقضَّ على شىء وأخذهُ بمخالبِه وارتفع يشقُّ به أجوازَ الفضاء . فتأملتُ هذا الشىء فإذا هو حيةٌ عظيمة كبيرةُ الجسمِ .

والتفتُّ حولى أستكشفُ المكانَ ، فوجدتُنى فى مكانٍ عالٍ تحته وادٍ كبيرٌ واسعٌ عميقٌ ، وبجانبه جبلٌ عظيمٌ شاهقٌ لا يستطيعُ الإنسان أن يرى أعلاه ، ولا يقدرُ أحدٌ على الصعود فيه ، فأخذتنى حسرةٌ ، وشملنى ندمٌ على ما فعلتُ ، ولمتُ نفسى إذ تسبّبْتُ فى نقْلِى من الجزيرةِ حيث كانتْ بها الأثمارُ والأنهارُ إلى هذا المكانِ الموحِشِ القفر ، الذى ليس به ما يُؤكلُ ولا ما يُشربُ . وقلتُ لنفسى ، وأنا فى شدةٍ من الهمّ والحسرةِ : لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! إنى ما خلصتُ من مصيبةٍ إلا لأقعَ فى مصيبةٍ أعظم .

واستجمعتُ قُوایَ ، وقمتُ أمشِى فى ذلك الوادِى ، فرأيتُ ما يخلُبُ الأنظـارَ .

رأيتُ أرضَه من حجر الماسِ ، وهو أغلى الجواهر وأسْناها ، ورأيت

الأفاعيَ والحيّاتِ تختبئُ بين الصخورِ خوفاً من طيرِ الرّخ ، حتى إذا ما جَنَّ الليلُ خرجَت تَسعى ، وهى عظيمةُ الخِلقةِ ، عظيمةُ الطول ، لو صادف الواحدةَ منها فيلٌ لابتلعتْهُ ، فبلغ منى الحزنُ مبلغَهُ ، وأيقنْتُ أنى هالكٌ لا محالةَ ، بل إنى قُلت :

والله ، لقد عجّلتُ بالهلاكِ إلى نفسِى ، وسُقتُها إلى الموتِ سَوْقا .

وولّى النهارُ وأنا لا أنتبه إلى جُوعى ولا إلى عَطَشى ، ونسيتُ أكلى وشُربى ، واشتغلْتُ فى البحثِ عن مكانٍ آمنُ فيه على نَفسِى شرَّ هذه الحيّاتِ المخيفةِ . وأخيراً لاحَتْ لى مغارةٌ فسرتُ إليْها ، فوجدتُ بابَها ضَيّقاً ، ووجدتُ بالقُربِ منه حَجراً كبيراً فأخذتُ أدفَعهُ حتى قرَّبتُه من بابِ المغارةِ ثم دخلتُ فيها ، وشدَدْتُ الحجر نحو البابِ ، حتى سُدَّ به ، وأنا داخلها ؛ فشعرتُ بالراحَةِ ، وقلتُ : لقد أمنتُ على نفسِى فى هذا المكانِ ، وغداً أخرجُ وأنظرُ ما تفعلُ بِى المقاديرُ ، وتأهبتُ للنومِ ، بعد ما تكبّدْتُ من تَعبٍ مُضنٍ ، وَجُلتُ بنظَرِى داخلَ المغارةِ ، فوقع نظرى على حيّةٍ عظيمةٍ نائمةٍ فى صدْرِ المكان فوقَ بيضها ، فاعتدلْتُ فى جلستِى ، وقد اقشعرّ بَدنِى ، وجفّ رِيقى ، وجمد لسانى فى فمى ، وقضيتُ جميعَ الليلِ ساهراً أنظرُ إليها ؛ وقد سلَّمتُ أمرِى للقَضاء .

ولما لاحَ الفجرُ ، ودخلَ بَصيصُ النور من فَجواتِ الصُّخورِ — أزحْتُ الحجرَ من مَدخلِ المغارة ، وخرجْتُ أترنّحُ مما بِى من شدةِ الجوعِ والخوفِ ، ومن السّهرِ .

وبينما أنا أسيرُ متثاقلاً متحاملاً على نفسي — رأيت شيئاً قد سقطَ وارتطمَ بالأرضِ أمامي، فتأمّلتُه فوجدتُه ذَبيحاً عظيماً، فدرتُ بعينيَّ في المكانِ فلم أجدْ أحَداً، فتحيرتُ من أمرِ هذا اللّحمِ، واستعجبْتُ مما رأيتُ؛ وسألتُ نفسي: ومَن الذي ألقَى به؟! لعلَّه سقَطَ من مخالِبِ طائرٍ أتَى به. وما انتهيْتُ من تفكيري هـذا إلاَّ على صوتِ ارتطامِ ذبيحةٍ أُخرَى بالأرضِ، فازدادَ عَجبي، واشتدّتْ حَيْرَتي، وتذكَّرتُ ما كنتُ أسمَعُهُ من أقاصيصَ عن تُجارِ الماسِ، وما يتّبعونَه من وسائلَ، وما يحتالُون به من حيلٍ للحصُولِ على الماسِ، ومنها: أن كلَّ تاجرٍ منهم كان يأتي بذبيحةٍ ويضعُ فيها علامةً، ثم يقذِفُ بها في الأماكنِ الغائرَةِ العميقةِ التي بها أحجارُ الماسِ، ولا يستطيعونَ الوصولَ إليها، فتلصقُ بها أحجارُ الماسِ وتأتي الطيورُ الكبيرةُ الضخمةُ، وتحملُها إلى أعالي الجبالِ، فيخرجُ التُّجارُ إليها، ويُخيفُونَها بشتَّى الوسائلِ، فتفزَعُ الطيورُ، وتتركُ الذبائحَ وتطيرُ، فيجيءُ كلُّ تاجرٍ إلى ذبيحتِه، ويأخذُ منها ما يكُونُ قد عَلِقَ بها من قِطعِ الماسِ، ثم يتركُون اللحمَ للطيور.

فلما تذكّرْتُ هذه القصةَ، دبَّ في نفسِي بعضُ الأملِ، في إمْكانِ الخلاصِ من هـذا المكانِ الموحشِ، وذلك بربْطِ نفسي في إحدَى هذه الذبائحِ، ليحملَني طائرٌ معه إلى مكانٍ آخرَ ربما أجدُ به بعضَ الأملِ في الخلاصِ من الكربِ الذي أنا فيه.

فلما اختمرتْ هذه الفكرةُ في ذهْني انتقَيْتُ من أحجارِ الماسِ أنفَسَها

وأكبرَها حجماً ، وأثقلَها وزناً ، وأغلاها قيمة ؛ مما لا يمكنُ أن يعلقَ باللحم ووضعتُه فى جيوبى ، وبين طياتِ ملابسِى . ثم عمدتُ إلى الرباطِ الذى هيأته من عمامتى ، وربطتُ به نفسى فى ذبيحةٍ كبيرةٍ ، حديثة الذبح ، تُغْرِى أضخمَ الطيورِ وأقواها ؛ وقبضْتُ عليها بكلتا يدَىَّ ، وتمنيتُ على الله أن يأتِىَ بفرجٍ سريعٍ ، يُزيحُ عنِّى هذا العبءَ الثقيل .

وحقق اللهُ أمنيَّتِى سريعاً ، فما مضَى قليلٌ حتى أقبلَ نسرٌ كبيرٌ ، وانقضَّ عليها ، وحملَها بين مخالبِه ، وارتفعَ بها إلى الجوِّ ، وأنا معلَّقٌ فى أسفلها ، وظل النسرُ طائراً حتى وصَل إلى قمة الجبلِ ، وحطَّ عليها ذبيحتى ، وأراد أنْ ينهش منها ، وإذا بصيحةٍ عظيمةٍ أتتْ من خلفِ ذلك النسر ، وأصواتُ أخشابٍ تقرعُ فوق الجبل ، فجفَلَ النسر وطارَ مصعِّداً فى الجو ، تاركاً اللحم ، ففككْتُ نفسِى من الذبيحة على عجَلٍ ، ونهضتُ على قدَمىَّ وقد تلطخَتْ ثيابى بالدماء ، ورأيتُ رجلا يتقدَّمُ من الذبيحةِ فما إنْ رآنى بجانبِها حتى فزِعَ ، وارتعبَ منى ، ولم يخاطبْنى ، ووقفَ متردِّداً مشدُوهاً . وأخيراً استجمعَ شجاعتَه ، وتقدَّمَ من الذبيحةِ وأخذ يُقلِّبُها ظهراً لبطْنٍ ، وينظرُ فيها باحِثاً ، لعله يجد شيئاً من الماسِ عالقاً بها فلم يجدْ شيئاً ، فصاح : واضَيْعتاه ! وياحَسْرتاه ! ويا سُوء حَظِّى ! أىُّ شىء هذا الحال ؟ ! لا حولَ ولا قوة إلا بالله ! وأخذَ يعض بنانَه تارةً ، ويُقلِّب كفَّه تارةً أخرى ، ويرفُس الذبيحةَ بقدميْه حيناً آخر ؛ فأشفقت

على الرجل وتقدمتُ منه ؛ فلما رآنى ، وملأ عينيه منّى — هدأ بعضَ الهدوء ، وقال :

مَنْ أنتَ ؟! وما سببُ مَجيئكَ إلى هذا المكانِ ؟!

فقلتُ له : لا تخفْ ولا تحزَنْ ، وهوِّن عليْكَ فإنى من خِيارِ الإنسِ ، وكنْتُ تاجراً ، ولى حكايةٌ عجيبة ، وقصةٌ غريبةٌ ، وخَبرُ وصولى إلى هذا المكانِ أعجبُ الأخبارِ ، وسأقصُّه عليكَ ؛ وأنا معِى شىءٌ كثيرٌ من حجرِ الماسِ ، وسأعطِيك منه ما يكْفيكَ ؛ وكل قِطعةٍ مما معى أحسنُ من كل ما كانَ سيأتيك ، فلا تظنَّنَّ أنَّ الفرصةَ ضاعت عليْكَ ، بل إن الله هيَّأَ لك خيراً مما كنْتَ تُريدُ ، وساقَ إليك أكثرَ مما ساقهُ إلى زملائِك جميعاً ؛ فاهدَأْ ، وسُرَّ عن نفسك ، فشكرَنِى الرجلُ واطمأنَّ إلىَّ وأخذَ يتحدث معِى . وعلِم بى بقيةُ التجارِ فأتَوا سِراعاً والتفُّوا حولِى ، يسألوننى خَبرِى ؛ فأخذتُ أقصُّ عليهم قصتى، واستمعوا إلىَّ وهم فى دَهشةٍ وعجَبٍ ، وقالوا : واللهِ إنه قد كُتبَ لك عمرٌ جديد ، وجعل اللهُ حياتَك ممدودةً موصولةً بهذه الحيلةِ العجيبةِ ، وأعطيْتُ صاحبَ الذبيحةِ التى تعلَّقْتُ بها شيئاً كثيراً مما كانَ معى من الماسِ ، ففرحَ به أشدَّ الفرح وشكرَنِى على حُسنِ صَنيعى معه .

وصحِبَنى التُّجارُ حيثُ قضيْنا ليْلتَنا فى مكانٍ مريحٍ أمينٍ ، نِمْتُ فيه مِلءَ جفُونى بعد ما قاسيْتُ فى الليْلتَيْنِ السابقتَيْنِ مِنْ أهْوالٍ .

ولما طلَعَ النهارُ استأنَفْنا المَسيرَ ، فسرْنا فى غاباتٍ واسعةٍ ، أشجارُها

كثيفةٌ باسِقةٌ ، تظل الواحدَةُ منها مائةَ إنسانٍ ؛ وبها أشجارٌ إذا ثقب الإنسان لِحاءها بشيء طَويلٍ حادٍّ — سالَ منهــا ماؤُها ، وعَقدَ مثلَ الصَّمغِ ، ثم تَجفُّ الشجرَةُ بعدَ ذلك ، وتصيرُ حَطَباً .

وتفرّقَ التجارُ كلٌّ إلى وِجْهتِه ، وبقى نفرٌ منهم مَعِى كانت وِجهتُهم وِجْهتى ، ففرحْتُ بصحبَتِهم ، واطمأنَنْتُ إليهم ، وأنِسْتُ بهم ، وصرْنا نَنْتقِلُ من مكانٍ إلى مكانٍ ، ونُشاهِدُ مشاهِدَ لم أرَها من قبْلُ ، ونتفرّجُ على ما نمرُّ به من البلادِ ؛ وقد رأيتُ فيما رأيتُ من الحيوان حيوانَ الـكرْكَدن وهو حيوان كبيرُ الجسم ، له قرْنٌ واحدٌ غليظٌ ، في وسَطِ رأسِه ويرعَى مثل الجامُوس في بلادِنا ، وقِيلَ لى إنّ هذا الحيوانَ يغلبُ الفيلَ ، ويغرِزُ قرنَهُ في بطْنِه ويسيرُ به ، فيسيلُ شحمُ الفيلِ على عينَيْهِ فَيُعميهِما . فيرقدُ بجانبِ الساحلِ ، فيأتى طائرُ الرخ ، ويحملُه ، ويزقّ أولادَه من لحمِه ، وبما على قرنِه من شحم الفيل .

وبِعْتُ بعضَ ما مَعى من ماسٍ ، واشتريتُ تجارةً ، وظللْتُ أبيعُ وأشترِى إلى أنْ وصلْنا إلى البَصرةِ .

وجئْت بَغْداد ، ودخلتُ دَارِى ، ومعى مالٌ كثيرٌ ، وبضائعُ وأمتعةٌ واجتمعتُ بأهلِى وأقاربى وأصحابى ، وتصدّقتُ ، ووهبْتُ ، وأعطيتُ ، وأهديْتُ ، وأكلْتُ طيِّباً ، ولبستُ فاخراً ، وصرْتُ في سرورٍ وانبساطٍ وفرحٍ وانْشِراحٍ ، ونسيتُ جميعَ ما تكبَّدْتُه وقاسَيْتُه ، وصارتْ قصتى قصةَ مسلِّية ، أقصُّها على كلِّ مَن يَسْألُنى .

وغداً إن شاءَ الله أقصُّ عليكمْ حديثَ السفرةِ الثالثةِ . وأمر السندباد البحرى ، للسندباد البرى الحمال بعشاءٍ فاخر ، فتعشَّى ، وأمر له بمائةِ مثقالٍ ذهَباً فأخَذها وانصرَفَ وهو يكرِّرُ الشكْرَ والدُّعاءَ للسندبادِ البحرى .

وفى الصَّباحِ أتى السندبادُ الحمالُ إلى منزلِ السندبادِ البحرى ، ولما اكتَملتْ حلقةُ الأصحابِ وتناوَلُوا طعامَهم ، قال السندبادُ البحرِىّ :



السَّفرَة الثالثة

اعلموا يا إخوانِى ، أنِى عدتُ من السفْرةِ الثانيةِ وأنا فرِحٌ جذلانُ بعودَتى إلى بلادِى ، وقد ربحتُ مالاً كثيراً عوّضنَى ما فقدتُه من بضائِعَ ، وجلبت قطع الماس الكبيرةِ الغاليةِ التى لم توجدْ فى قُصورِ أغنى الملوكِ ، فلو أردتُ بيعَ واحدةٍ منها لحصّلتُ من ثمنها ما أُنفِقُ منه جميعَ حياتى . ومضتْ مدةٌ طويلةٌ وأنا أستَمتعُ بكل أسبابِ المُتعِ ، ولما طالَ بى المقامُ ، سئِمْتُ الراحةَ واشتاقتْ نفسِى إلى العمَلِ والسعْى ، والتجارةِ والربحِ ، لأنى لستُ من الذين يركَنُونَ إلى الكسَلِ والدَّعَةِ ، ويُؤْثِرون السلامةَ — متى توفّرَ لهم الرزقُ وكثُرَ عندهم المالُ ، فهيأْتُ نفسى لذلك ، واشتريْتُ بضائعَ كثيرةً وسافرتُ بها من بغداد إلى البَصرةِ ، على عادَتى ، وجئتُ إلى الساحِلِ فوجدتُ مركباً عظيماً على

وشْكِ الإبْحار وفيه تُجَّارٌ وركابٌ كثيرون . كلُّهُم أهلُ خيرٍ ودينٍ وصلاحٍ ، فنزلتُ معهم ، وسافر المركبُ على بركةِ الله ، وجميعُنا مستبشرُون بالخيرِ والسلامةِ .

وطاف بنا المركبُ فى البحارِ ورسَا بنا على جُزُرٍ وبلادٍ كثيرةٍ وكان كلّما رسَا بنا على مَكانٍ نخرجُ إليه فنبيعُ ونشترِى ونتفرّجُ ، ونحنُ على غايةٍ من السرورِ والانبساط ، وأصبنا فى طوافِنا هذا ربْحاً جَزِيلا .

وفى أحدِ الأيامِ ، والمركبُ يسير بنا فى وسطِ البحر العجاجِ ، المتلاطِمِ الأمْواجِ وكان الرئيس واقِفاً فى مقدمةِ المركب ، ينظرُ فى أفُقِ البحر — رَأيْناه فجأةً قد صرخَ بأعلى صوْتِه ، وأمر بطى القُلوع وإرساء المراسِى ، فدهشْنا لذلك جميعاً والتفَفْنا حولَهُ سَائِلين ما الخبرُ ؟ ما وجْه الخطَرِ ؟ ! أغارقُون نحنُ أم ناجُون ! ! فدارتْ عيناهُ فى رأسِه ، وقال :

إن ريحاً هوجاء عاصفةً لاح خطرُها فى الأُفُقِ ؛ ها هى ذى مقبلَةٌ علينا ؛ ها هى ذى قد غَلبتْنا ، وعصفَتْ بنا ؛ إنها تَدفعُ المركب دفعاً ، لقد أفْلَتَ الزمامُ من يدِنا ، لقد قذفَتْ بنا المقاديرُ لسوء حظنا إلى جبلِ الرعب ، وأهلُهُ قومٌ مثل القرود ، وما وصلَ إلى هذا المكانِ أحدٌ وسلمَ منه قطّ . وما نحن إلّا هَالِكُون جَميعاً .

وما أَتمّ الرئيسُ كلامَه حتى زحفَتْ علينا هذه المخلوقاتُ كالجرادِ المنتشرِ ، وأحاطتْ بالمركبِ من كلّ ناحيةٍ ، وأخذوا يتسلّقُونَه وَينزلُون فيه ، فرأيناهُم أناساً متوحشِين قصارَ القامةِ ، لا يزيدُ طولُ الواحد

منهم على أربعةِ أشبارٍ ، وهم سودُ الوجُوهِ ، صفرُ العيونِ ، فُطسُ الأنوفِ ، لهم شعرٌ مثل اللبدِ الأسود لا يُفهمُ لهم كلامٌ ، ولا تعرَفُ لهم إشارةٌ . فخشينا إن بَدأناهم بالقِتالِ أن يقتلُونا لِكثرتِهم ، والكثرةُ تغلبُ الشجاعةَ ، وتريَّثنا لننْظرَ ما يَفعلون فرأيناهُم قد ساعدوا الريحَ وساقُوا المركبَ إلى جبَلِهم . وأخرجُوا الركابَ إلى الجزيرةِ واعتقلوهم بها . ثم استوْلَوْا على المركبِ ومَا فيه ، وساقوه بعدَ ذلك ولا نَدْرِى إلى أيْنَ ذهَبُوا به :

وأنسانا حُزْنُنا على سُوء مصيرنا ، ضياعَ أموالِنا وفقدانَ متاعِنا ، فانتشرْنا فى الجزيرةِ نستكْشِفُ أمرَها ، ونبحثُ عن مَنفذٍ لنا ، فوجدْنا بها أشجاراً كثيرة مثمرةً ، محمَّلةً بأصنافِ النقُولِ ، والفواكهِ الشهيَّةِ ، وبها أنهارٌ عذبةٌ جاريةٌ ، فأكلْنا مِن ثمارِها وشربنا من مائها ، ولاحَ لنا من بُعدٍ بناءٌ شامخٌ قائمٌ فى وسطِ الجزيرة ، فقصدنا إليه ، وقد تحركَ فى قلوبنا الأملُ . وانتعشَ الرَّجاء .

وصلْنا إلى القصر ، فإذا هو قصرٌ مشيدُ الأركانِ ، متينُ البنيانِ ، عالى الأسوارِ ، له بابٌ كبيرٌ من خشبِ الأبنوس مفتوحٌ على مصراعيْهِ ، نفذْنا منه ، فوجدْنا داخلَه ساحةً واسعةً ، مُحاطة بأبوابٍ مرتفعة ، وفى صدْرِ المكانِ مصطبَةٌ كبيرةٌ عاليةٌ نُصبتْ عليها مواقِدُ لإيقادِ النار ، وعُلِّقَت فَوْقَها أوانٍ وقدورٌ ، وقد انتشرَ حولَها كثيرٌ من العظامِ . ولم نجدْ فى المكانِ أحداً فَدهشْنا كثيراً لذلك . وكان التعبُ قد استَبدَّ

بِنا ، وألَحَّ علينا ، فجلسنا نستريحُ بتلك السَّاحةِ ، ثم أخذَنا النومُ فنِمْنا .

وظللْنا نائِمين حتى غروبِ الشمسِ ، وإذا بالمكانِ قد ارتجَّ بنا ارْتجاجاً شديدا فكأنما زُلزلت الأرضُ زلْزالها ، وسمعنا من الجوِّ دويًّا مُزعجاً ، فارتجفَتْ أجسامُنا وارتعشتْ أوصالُنا ، وحالتْ ألوانُنا ، وزاغتْ أبصارُنا وجفَّ ريقُنا ، وأيقنَّا أن بلاءً عظيما سيحُلّ بنا وما هي إلا رجْعةُ طرْفٍ حتى أبصرْنا عِملاقا قدْ تدلَّى من أعلى القصرِ ، طويلَ القامةِ كأنه نخلةٌ عظيمةٌ أسودَ اللونِ كالليلِ الحالك وله عَيْنان حَمْراوَان كأنهما شُعلتان من نارٍ ، وأنيابٌ مثل أنيابِ الحيوان ، تبرز من فَمٍ كأنه فمُ بئرٍ ، ذى مَشافِرَ كمشافرِ الجملِ — تدلتْ نحوَ صدرهِ حتى كادت أنْ تَبلُغَه .

وأذناه مرتخيتان إلى أكتافِه ، وله أظافرُ كمخالبِ الأسدِ . فما رأيْناه حتى ارتميْنا نلهثُ من شدةِ الخوفِ والفزعِ ، ثم غابَ أكثرُنا عن وعْيِه ، وطار صوابُه ، وفقدَ رشدَه ونزل هـذا العِمْلاقُ فجلسَ فوق المصْطَبةِ ، وأخذ يسلِّطُ شواظَ شُعْلتَيْه علينا . ونحن ننظرُ إليه ويتداخلُ بعضُنا فى بعضٍ رُعْباً ، وبعد أن أصْلانا عذاباً من الخوْفِ والفزَعِ نَهضَ مُتثاقِلا وأتى إليْنا ، وأمسكَ بى من بيْن أصحابى ، وأخذ يقلِّبنى ويجُسُّنى كما يجُسُّ الجزارُ الذبيحة ، وأنا بيْن يديه كفرخٍ صغيرٍ ، أرتجفُ فَرَقاً ولا أحاولُ منه فَكاكا ، خشيةَ أنْ يبْطشَ بى ، فلما لم يجدْنى كثيرَ اللحمِ موفُور الشحمِ أطلقَنى ، وأمسكَ بغيْرِى ، وما زال يقلِّبُ فينا



واحداً بعد واحدٍ ويجس بأصابعه لحمنا حتى وصلَ إلى رئيسِ المركبِ وكبيرِ البحارةِ ، وكان رجلاً سَميناً ، غليظاً عريضَ الأكتافِ فما أمسكَ به حتى أعجبهُ ، فقبضَ على رجليْه ، وألقى به إلى الأرضِ ، ووضعَ قدمَه على رقبتِه فقصفَها ، وجاء بسَفُّودٍ طويلٍ من الحديدِ ، فأدخلَه فيهِ ، وأوْقدَ ناراً شديدةَ اللّهَبِ فى أحدِ المواقدِ ، ووضعَ الرئيس فوقَها ولم يزلْ يقلِّبُه على الجمْرِ ، حتى نضج لحمهُ ، وقطر شحمُه ، فأخرجهُ من النار ، ووضعهُ أمامَه ، وفسخه فسخاً كما يفسخُ المرءُ الدّجاجة ، وأخذ يمزق اللحم بأظافِره تمزيقاً ويأكلُ ، حتى أتى عليه جميعِه ثم عَرقَ عظمَه ، وألقاهُ بجانبِه ، وتمدَّدَ على المصْطبَةِ ، وراح يهدِرُ كما يهدِرُ الجملُ المخشوشُ ، ولفحةُ النسيمُ ، فأخذه النّوْم ، وعلا شَخيرُه ، فعرفْنا أنه مستغرقٌ فيه ، ومع ذلك فإن الخوفَ الذى تملّكنا جعلَنا مأخوذِين ، وبقينا ننظرُ إليه ونحن لا تطرفُ لنا عيْن ، ولا نرى إلا صورةً بشِعةً لا تتصوّرُ بشاعتَها مخيّلةُ إنسانٍ ، ولما لاحت تباشيرُ الصباح تمطّى ونهضَ ، وخرج إلى حيثُ لا ندْرِى فلما تحققْنا بُعْده ، تحدثْنا ، وبكيْنا ، وقلنا : يا ليتَنا غرقنْا فى البَحرِ ، أوْ أكلتْنا القرودُ ، فإن ذلك كان خيراً من شينا على الجمْرِ ، ثُمَ خرجنا إلى الجزيرَة نبحثُ عن مكانٍ نهرب إليه ونختبئ فيه ، وظلِلْنا كذلك حتى أمْسى علينا المساء دون جَدْوَى فضاقت الدنيا فى وُجوهِنا ، وهان علينا الموتُ ، على أى وجهٍ إلا أن نُوضع على السَّفُّودِ ونُشْوَى فى النار .

ولم تلبَث أن ارتجّت بنا الأرْضُ رجًّا عَنيفاً فعرفْنا أنه النَّذيرِ بقُدومِ الغولِ الأسود ، فأسرعْنا نجرى هُنا وهناك ، تَبْغِى الفرارَ ، ولكنْ منْ غيرِ وَعْيٍ أو إدراكٍ ، ولم تمر إلا لحظةٌ حتى رأيناه مُقبِلًا ، فلما رأى تَصايحَنا وجرْيَنا واضطرابَنا كما تتَصايحُ الفراريجُ وتجرى وتضْطرِبُ حينما يُزْعِجُها ذِئبٌ أو ثعلبٌ ، مدَّ الغولُ يدهُ فقبَضَ على واحدٍ منا فلم يعجِبْهُ لهُزالِهِ فأطلقَه ، وأمسك غيْرَه ثم أطلقَهُ وهكذا حتى عَثُر على شخصٍ أعجبَه ، فأخذَهُ ، وفعلَ به كما فعلَ بالرئيسِ في اليوم السابقِ على مرأًى منا ، فوجَفَتْ قلوبُنا ، وارتعدتْ فرائصُنا . وقضيْنا ليلةً ليلاء ، لم يغمضْ لنا فيها جَفنٌ ، ولم يرقأ دمعٌ ، ولم يهدأ قلبٌ . ولما أصبح الصباحُ تركَنا وذهب إلى سبيلِه ، واجتمعْنا نتبادَلُ الرأىَ ، ونتشاوَرُ فى أمرِنا . فقال بعضُنا : إننا نُلقِى بأنفسِنا في البحرِ ، ونموتُ غرقاً ، خيرٌ من أن نموتَ حرْقاً ، بعد طولِ العذاب .

وقال واحدٌ منا : عجباً يا رِفاقِى كيف نعجزُ عن الاحتيالِ للتخلُّصِ من ذلك الغولِ الأسود ؟! وكيفَ لا نستطيعُ أن ننتقِمَ منه ؟! وقد يبلغ الإنسانُ بالحيلةِ وحُسنِ التصرفِ ، ما لا يَبْلُغُه أقوى المخلوقاتِ قوةً ، وأشدُّها بأساً ؛ وإن الماء مع سلاستِه وليونَتِه يشُقُّ الصخْرَ ؛ فاهدءوا وفكّروا ، وأجمِعُوا أمرَكم ، واصطَنِعوا حيلةً تقْضى بها على ذلك الحيوانِ المفترس ونقتلُه لِتُريحوا أنفسَكم ، وتُريحوا غيرَكم من شرِّه ؛ وإن الفرصةَ

سانحةٌ حينما ينامُ ، بعدَ الأكلِ ، فإنّنا نفقأ عينيه ، فلا يرى ، وبعد ذلك نُفكرُ في قتله .

فقلت لهم : اسْمعوا يا إخواني ، قبْلَ أن نحاولَ قتله لا بدَّ أن نُهَيِّئَ لنا سبيلاً للفِرار حتى إذا فشلنا في تَدْبيرِنا ، ولم نتمكنْ منه نأمَنُ بَطشَه بالفرارِ ، والرأيُ عندى أن نَنقلَ هذا الخشبَ والحطبَ ونتعاونَ جميعا في صُنْع فلكٍ منه نحمِله تحتَ أعيُننا ، يسير بنا إلى عرْضِ البحر حينَما نلجأُ إليه فإذا ما أرادَ بنا هذا العِملاقُ شرًّا هربْنا في الفُلْك ، ودفعناه إلى البَحْرِ ، فإن سلِمْنا كانَ ذلك من رحمةِ الله ، وإن غرِقْنا فذلك مصيرُنا المقدُور .

فأمَّنوا جميعاً على رأيي .

وقالوا : هذا واللهِ هو الرأيُ السَّديد .

وشرَعْنا من فَوْرنا في العملِ ، فنقلْنا الأخشابَ إلى خارجِ القَصر ، وتعاونَّا جميعاً في عملِ الفلك ، وربطناهُ على جانبِ البحرِ ، وأنزلْنا فيه شيئاً من الزادِ ، ثم عُدْنا إلى القصرِ في انتظارِ العِملاقِ ، وقد عزمْنا على أن نَسْملَ عيْنيْه .

فلما كان المساء ارتجت بنا الأرضُ ، وأقبلَ رسولُ الموت ، ودخل علينا ليأخذ ضحيَّتَهُ الجديدَة ، ومدَّ يدَه ينْتقِيها ، ونحن ننكمِشُ ويدخل بعضُنا في بعضٍ ، وبعد وقتٍ عصيبٍ رَهيبٍ خرجَتْ يدُه بالمسكين الذي جاء أجلُه .

وسرعان ما انتهى الرجلُ ، وكأنه لم يكنْ ، ولم يبقَ منه إلا بعضُ عظيماتٍ ، اتخذت مكانَها فوقَ العظامِ القديمة .

وما مضى قليلٌ حتى نامَ ، واستغرقَ في النوم استغراقاً شديداً ، وعلا شخيرُه ؛ فنهضنا مشمِّرين للعمل ، وقد استمددْنا من يأسنا قوةً ، ومن حقدِنا عزْماً ، تغلبَ على ما كان من رَهْبتِنا وخوْفِنا .

وأخذْنا سيخين مسنُونين من الأسياخ المنصوبة ووضعناهُما في لَهيبِ النار القوية ، حتى احمرا وصارا مِثلَ الجمرِ . وقبضْنا عليهما قبضاً شديداً ، وجئنا بهما إلى ذلك الأسودِ ، وهو نائمٌ ، وقد عَلا شخيرُه ، ووضَعْناهُما في عينْيه ، وضغطْنا عليهما جميعاً بكل قوّتِنا وعَزْمِنا ، فأدخلناهما فيهما ، فانثلَمتا وانْطمَستا ، فصاحَ العِملاقُ صيحةً عظيمة ما سمِعتُ في حياتي أنْكرَ منها ، ونهضَ قائماً من فوقِ المصطبةِ يجُول في المكانِ كالوَحْش الهائِج يبْحَثُ عنا ولكنه لا يرانا ، فقد انفقأتْ عيناه ، فكان يَخْبطُ خَبْطَ عَشْواء ، يصطَدِمُ بالشجرِ ، ويقعُ في الحُفرِ ، وينزلُ في الماء ، وينكَفِئُ على وجْههِ ، وتشُجُّ فروعُ الأشجارِ رأسَه ، وهكذا ظلَّ يُعْولُ ويَصيحُ ، ويضغطُ على أنيابِهِ مَغيظاً مُحْنقاً ، ويمدُّ يديْهِ الطويلتَين ليقبِضَ على أحدِنا ، ولكنه ما كانَ يقبضُ إلا على فرعِ شَجرةٍ ونحن نجري ونهربُ منه هُنا وهناك وهو لا يَرانا ، ولكننا برغْم ذلك كُنَّا في أشدِّ حالاتِ الرعْبِ والفزَعِ لشدةِ هياجه ، حتى أنَّنا يئِسْنا من النجاةِ ، أو كِدْنا نيأس ، فإنه كان يُخيَّلُ إلينا أنه يمدُّ ذراعيْه على الجزيرةِ كلِّها ، فلا

يدعُ شبراً واحداً من غيرِ أن يتحسَّسَه ، وأخيراً قصدَ هذا الوحشُ الهائجُ ناحيةَ بابِ القصر وتحسَّسَ طريقَه إليه وخرجَ منه وهو لا يَزالُ يَصيحُ ويزأرُ ، ونحن نرتجفُ نَدَماً .

ولما خفتَ صَدَى صوتِه ، وخَفَّ عن آذانِنا وغاب هو عن أعينِنا خرجْنا واتخذنا مجلسَنا أمامَ القصرِ ، نَستجمِعُ قوانا المنهوكةَ ونَتشاورُ في أمرِنا .

وما استقرَّ بنا المُقام قَليلا ، حتى رأيناه قد هَبَطَ علينا تقُودُه أنثى أكبرُ منه جسماً وأبشعُ خِلقةً ، فأسرعْنا هاربين إلى الفُلكِ ، يتعثَّرُ بعضُنا في بعضٍ ، فننكفِئُ على وُجوهِنا من الذُّعرِ والفزَعِ .

وبلغْنا الفلْك بعد وقتٍ عصيبٍ خِلْناه دهْراً ، وأسرعْنا فقطعْنا حِبالَه ودفعْناه إلى البَحْرِ بعد أن صَعِدنا فيه ، والعملاقانِ مُسرِعانِ وراءنا يَتْبعانِنا وقد أمسكتْ الأنثى برفيقِها ، وبِيدِ كلٍّ منهما صخرةٌ ضخمةٌ . وما أشرفَا علينا حتى قَذفانا بما في أيديهما ، وكانت الأنثى تلتقطُ الأحجارَ الكبيرةَ ، وتَقذفُنا بها ، وتوالَت الرَّجماتُ علينا بشدَّةٍ وقَسْوةٍ ، قبل أن نَستطِيع أن نُبْعِدَ بالمركَبِ إلى عرضِ البحرِ .

وما بَعُدَ المركبُ عن مَرْمَى قذائفِهما ، حتى كانَ ، ويا حَسْرتاه ، قد هلَكَ أكثرُ مَنْ بالفُلك من الرِّفاقِ ، وزهقَتْ أرواحُهم من شدَّةِ وقعِ الأحجارِ عليهم ، فبعضُهم أُصيبَ في رأسه ، وبعضهم تحطَّمتْ ضلوعُه ؛ واضطرَبْنا اضْطِراباً شَديداً ، ولم ينفعْهم ما بذلُوا من جهودٍ في سبيلِ

الخلاص ، وكان قد داعَبَ أنفُسَهم الأملُ فى النجاةِ ، ولم ينجُ بعد هــذا الصِّراعِ إلا ثلاثةُ أشخاصٍ ، كنتُ واحداً منهم .

ولما رأينا أن لا نجاةَ لواحدٍ من رِفاقنا ، وأنهم أسلمُوا أرواحَهم ، قذفنا جثثَهم فى المـاء ، فراحَتْ طعاماً للسمكِ والحيتانِ وحيوانِ البحر ؛ وهِيَ على أىِّ حالٍ مِيتةٌ خيرٌ من الشَّيِّ على السَّفود .

طوَّحَ بنا الفلكُ إلى جزيرةٍ أخرى ، ونزلْنا فيها وتبلَّغْنا بشىءٍ من ثمارِها وانطرحْنا على الأرض نَستعيدُ قُوانا الخائرة . وأقبلَ علينا الليلُ ونحنُ على ما نحنُ عليه فأغمضنا عيونَنا ونِمنا . ولم يأخذْنا النومُ طويلاً لفرطِ ما نَحمِلهُ من رُعْب وفَزَع . وانتبهْنا ، فإذا ثعبانٌ هائلٌ ، عظيمُ الجسم ، واسعُ الفمِ ، مرقشٌ بسوادٍ وصفرةٍ ، خشنُ الجلدِ ، عريضُ الرأسِ يصفِرُ صفيراً مُزْعجاً ، ويصيحُ صياحاً ، ويفحُّ فَحيحاً قد التفَّ حولَ واحدٍ منا ، وغَيَّبَ رأسهُ فى فِيهِ وضغطَ بجسمِه عليه ، وطحَنهُ طحنَ الرَّحَى ، وما هِيَ إلّا لحظةٌ قصيرةٌ حتىَ كانَ الرجلُ قد اختَفى فى جوفِ ذلكَ الثعبانِ المُخيفِ .

وابتعد الثعبانُ عنَّا وتركَنا فى ذهُولٍ من هَولِ ما مَرَّ بنا وما رأينا ، وأحسَسْنا أخيراً أننا لا نزالُ على قيدِ الحياة ، واشتدَّ بنا الحزنُ على رفيقنا ، وعلى أنفسِنا ، وأخذنا نقُولُ :

لا حوْلَ ولا قُوةَ إلا بالله ، ما نجوْنا من الأسودِ ، ومِن الغرَق ، إلا لنموتَ هذه الميتةَ الشنيعة !! وما نخرج من هَوْلٍ إلا إلى هَوْل ! وما نَنجو من مَوتٍ إلا إلى مَوتٍ ، وكان يُمزِّقُ قلبي أنى أنا الذى بَطرتُ ،

وأنى أنا الذى لم أقنع بما هيأ الله لِى من غِنًى وثَراء ، فجررتُ على نفسِى ما أنا فيه من بُؤسٍ وشقاء .

وفى اليومِ الثانى جُبْنا الجزيرةَ نبحثُ عن مأوًى أمينٍ يَعْصِمُنا من شرِّ هذه الآفةِ الجديدةِ التى ابتُلِينا بها ، فلم نجد خيراً من التسلُّقِ فوقَ شجرةٍ عاليةٍ وقضاء الليلِ فوقَها ، ولما أمسى المساء نفّذنا ما اعتزمْنا . فاخترتُ أنا ورفيقى شجرةً باسِقةً ، واتخذ كلٌّ منا مكاناً له بين فُروعِها . واعتمدنا على اللهِ ، وجلسْنا بين اليأسِ والرجاء .

أتى الثعبانُ وجاسَ هنا وهناك وسرعان ما زحَفَ إلى الشجرةِ التى اعتليناها ، فكأنه شمّ رائحتَنا وصعد إلينا ، وما هى إلا ثوانٍ حتى كانَ رفيقِى فى فَمِهِ ، فغطيتُ وجهى براحتَى من هولِ ما رأيتُ ، ولكنّى ما استطعتُ أن أمنعَ عن أُذُنى صوت تكْسِير عظامِه ، ثم سرعانَ ما ابتلعَ الرجلَ ، وأسكَنَه جوْفَه ؛ ثم هبَط من فوقِ الشجرةِ يفِحُّ فَحيحاً كالأنينِ ، لثقلِ بطْنِه ، وقضيتُ بقيةَ الليلةِ فوقَ الشجرةِ ، وما أدرى كيفَ تماسكْتُ ؟! ولم يُسْلِمنى الاضطرابُ إلى الأرضِ صَريعاً ، ولكنها إرادةُ اللهِ ورحمتُه .

وفى الصباحِ هبطْتُ من فوقِ الشجرةِ ، وقد تملّكتْنى الوساوسُ والأوهامُ ، فإنه لم يبْقَ غيرِى ؛ واشتدّ بى الكرْبُ وأردْتُ أن أُلقِى بنفسِى فى البَحْرِ لأستريحَ من هذا العذابِ الأليم ، نخانتْنى شجاعَتِى

وخذلتنى عزيمتى ، ثم خَطَر ببالِى أنْ أحْتال حِيلَةً أُخرى تُنْجِينى من مَكْرِ هذا الثعبانِ المُخِيف .

وهدانى التفكيرُ إلى أن أصْنَع لنفْسِى شبهَ صُندوقٍ أحْتَمى فيه ، وشرعْتُ فى جمع ما يَلزمُنى مِنَ الخشَبِ ، ولكنّنى لم أعثُر على كلّ ما يلزَمُ لصنْع الصندوقِ ، فاكتفيْتُ بأن ركَزْتُ لوحاً عريضاً فوقَ رأسِى ، ولوحاً عندَ قدَمىّ ، ومِثلَهُما عن يمِينى وعن شِمالى ، وواحداً على صدْرى ، وآخَر تحت ظَهْرِى ؛ ثم أحكمتُ ربْطَها من حَولِى ، وطرَحْتُ نفسِى وأنا محاطٌ بالألواحِ من كلّ ناحية على الأرض ، فصِرتُ وكأننى قد حُشِرْتُ فى صُندوقٍ ضيقٍ .

وأقبلَ الثعبانُ على عادتِه ، وقصدَ إلىّ مِنْ فورِه ، فوجدنى داخلَ هذه الصومَعةِ ، فدار حَوْلَ الأخشابِ يريد الوُصولَ إلىّ ، فلمْ يستطِعْ لحاولَ أن ينفُذَ من بيْنِها فلم يَقدِرْ . فأخذَ يبتَعِدُ عنى ثم يَعُود ، ويبْتَعِدُ ثم يَعُود . فتمنعُه الأخشابُ وتصدُّه ، وهكذا استمرّ يحومُ من حوْلِى ويفِحّ وأنا أنظرُ إليه ، وقد أشرفْتُ على الموتِ من الرعْبِ والفزَع ، وظلّ كذلكَ من غروبِ الشمسِ إلى شُروقِها . وأخيراً تركنى بعد أن تهدّمَتْ أعصابِى ويَئِس من الوصولِ إلىّ ، ولو أنه لفّ جسمَه على الخشَبِ ، وضغَطَ عليه ضغْطاً خفيفاً لانفصلَت الألواحُ بعضُها عن بعضٍ ، وانكشفَ جسْمى له ، وفعلَ بى كما فعلَ بغيرِى ، ولكن الله قدّر لِى السلامةَ ، فعمِىَ الثعبانُ عنْ ذلك ، فنجوْتُ .

جاهدتُ إلى أن تخلَّصتُ من محبسِي ، وجررتُ ساقيّ جرًّا حتى ساحِلِ الجزيرة ، حيثُ جلستُ أرقُبُ الأُفُق بعينٍ يقِظَةٍ ، وأنظرُ إلى الشمسِ راجياً ألاَّ ينصرمَ النهارُ حتى أجِدَ لِي مَخْلصاً ؛ وبقيتُ أرسِلُ النَّظرةَ وراء النظرةِ إلى البحرِ ، لعلّني ألمحُ سفينةً مارةً تُنجدني وتنتشِلني ، وإلا نفذتُ ما صمّمتُ عليه ، وهو أنه إذا جاء المساء ولم يبعثِ اللهُ إليّ بالفرجِ ، قذفتُ نفسِي بين أمْواجِ البحر ، تطويني في جوفِها ، وتريحُني مما أُقاسيهِ من عذابٍ ، ومن شرّ قضاء ليلةٍ أُخرى ، حافلةٍ بالأهوالِ ، وقد لا تكُون فيها نجاةٌ .

وكان اللهُ في عوني ، فلم ألبثْ أن تبيَّنتُ شيئاً يظهرُ ثم يختفِي بين لُجَّةِ الماء . ثم ما لبثَ أن ظهرَ ، وتبيَّن لِي أنه مركب يمخُرُ البحرَ ، ودبّ النشاطُ فيَّ فجأةً وأتتني عافيةٌ لم أكنْ أعهَدُها في إبّانِ قوّتي. وغدوْتُ كالمجنُونِ ، فانتزَعْتُ فرعَ شجرةٍ طويلاً ، جعلتُ في طرفِهِ قميصِي الأبيضَ ولوّحْتُ به لرُبّان السفينةِ ، وأنا أصيحُ بأعْلَى صوتِي وأذكُرُ كثيراً من كلماتِ الاستغاثَةِ والنجدةِ ، وقوّى اللهُ حنجرتي ، فكانَ صوتي يعلُو هديرَ الموْج .

ونجَحْتُ في توجيهِ نظرِ مَنْ في السفينةِ إليّ ، لأنّي رأيتُ السفينةَ تدنُو منّي رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، وتقترِبُ من الشاطئ شيئاً فشيئاً ؛ وبعد قَليلٍ وصلَتْ إلى مكاني ، فألقيْتُ بنفسي بها ، فتلقَّاني الربانُ والبحارةُ ومن معهُم فرحِين ، ولكنّي لم ألبَثْ أن أصابتْني غشْيةٌ من الفرح

بنجاتِى من ذلكَ الثعبانِ الفظيعِ ! ولم أكدْ أفيقُ من غشيَتِى حتَّى رأيتُهم ملتفِّينَ حولِى ، مستعجبينَ لما أصابنى ، من الغَشْيةِ ، متأمّلينَ فى حالِى ، وقد بدا علىَّ أثرُ الجهدِ الشديدِ ، والسَّهرِ الطويلِ . لونٌ حائلٌ أصفرُ ، وعَينانِ غائرتانِ ، ووجهٌ معروقٌ ، وأعضاءٌ مسترخِيَةٌ .

فلما تفتّحتْ عيناىَ ، وتحركتْ شَفتاى ، ودبَّ فى جسمِى دبيبُ الحياةِ ، أطعمُونى وسقَوْنى ، ثم سألُونى عن شأنى ، فقصَصْتُ عليهم ما صادَفْتُ فى تلكَ السفرةِ المشئُومةِ فاستَمعُوا إلىَّ مشدوهِينَ مستعجبينَ ، وهنئُونى بالسلامَةِ .

وقضَيْتُ مع ركابِ السفينةِ وقتاً طيِّباً ، وهم لا يَنُونَ عن إكرامِى والحفاوَةِ بى ، حتى رسَتْ السفينةُ بنا على جزيرةٍ يقالُ لها السلاهطة ، وأخرجَ جميعُ من بها من التجارِ بضائعهُمْ ليبيعُوا ويشترُوا ، فأتانى صاحبُ المركَبِ وقال لى اسمعْ يا هذا إنكَ رجلٌ غريبٌ فقيرٌ ، وقد أخبرتَنا بما قاسيْتَه من الأهوالِ الكثيرةِ وأنا أريدُ أن أنفعَك بشىءٍ يُعينُك على الوصولِ إلى بلادِك .

فقلتُ : يا سيدِى ، إننى شاكرٌ لكُم فضلكُم علىَّ ، وقد طوقتُمونى بكثيرٍ من المعروفِ فقال : إنّا معنا تجارةٌ لرجُلٍ كان برفقَتِنا وفُقِد مِنّا ، ولا نَدرِى أهُو ميتٌ أم حىّ ، أُريدُ أن أدفَعَ إليكَ أحمالَهُ لتبيعَها فى هذه الجزيرةِ وغيرِها من البلادِ التى سوفَ نمرُّ عليها . ولكَ جعلٌ فى نظيرِ خدمتِك هذه . وما تَبقَّى من أرباحٍ نردُّه إلى أهلِ هذا الرجلِ

حينَ رجوعِنا إلى مدينةِ بغداد . فهل تُوافقُ على هذا الرأى ؟ .

فقلتُ : سَمعاً وطاعةً يا سيدِى وسأَحمِلُ لكَ ما حييتُ هذا الجميل .

فأمرَ الحمالين والبحارةَ بإخراجِ تلكَ البضائع ، وتسليمِها إلىَّ .

فقال له كاتبُ المركب : يا رئيسُ إن أصحابَ التجاراتِ الذين فقدناهُم كثيرون وقد تصرَّفْنا فى بعضِها ، وبَقِى بعضُها الآخرُ كما هو ، فأىَّ التجاراتِ تُريدُ ؟ وباسْمِ مَنْ مِن التجارِ أكتُبُ هذه التجارةَ التى أُخرِجُها ؟ .

فأجاب الرئيسُ : باسم السندبادِ البحرى الذى كان مَعنا وفقدناه فى الجزيرةِ ولا نَدرِى ما أصابَه وسندفَعُ بها إلى هذا الرجلِ الغريبِ يبيعُ ويشتَرِى ويعارضُ ويقايضُ ، ويستثمِرُها بكل الوجوهِ الممكنةِ ؛ ونجعلُ له نَظيرَ ذلك أجراً ، وندفع بالباقِى إلى أهلِ صاحبِ التجارةِ عندما نَعُود .

فقال الكاتب : والله إن هذا لَهُوَ الرأى الصوابُ .

فلما سمعتُ إن هذهِ التجارةَ باسْمِى ، أيقنتُ أنها تجارتى التى خرجْتُ بها فى السفرةِ السابقةِ ، وعرفتُ أن هذا المركَبَ هو عينُه الذى كنتُ عليه وتركَنِى ربانُه بالجزيرة نائماً وأقلَع . فتفرستُ فى وجْهِ الربَّانِ وفى التُّجارِ فعرفْتُ منهم رِفاقِى فى تلكَ السفرةِ ولكنْ ما مرَّ علىَّ من أهوالٍ ، وما مر عليهمْ من متاعبِ السفرِ ومشاقِّه جعلهمْ لا يعرفونَنِى ، وجعلنِى لا أعرِفُهم لأوّل وَهْلةٍ وانتظرتُ على مضضٍ حتى انفَضَّ التجارُ ، وقلت لصاحبِ المركب :

يا سيدِي أتعرف كيف كانَ صاحبُ التجارةِ التى سلمتَها إلىّ لأبيعَها له ، ما شأنُه ؟ وما شكلُه ؟ وماذا جرى لَهُ حتى تركَ تجارتَه ؟ .

فقال : لا أعلمُ له حالا ، ولكنّه كان رجلاً من مدينةِ بغداد يقالُ له السندبادُ البحرىُّ وفى أثناء سفرِنا رَسَوْنا على إحدَى الجزائرِ ، ففُقِدَ منّا هناكَ ولا نَدرِى ، أغرِقَ أم ماذا أصابَه ؟ ! وقد فُقِدَ منا فى هذه الرحلة ركابٌ آخرون غيرُه فلم أستَطِع أن أملكَ نفسِى وصحْتُ قائلا :

يا رئيسُ اعلم أنّى أنا السندبادُ البحرىُّ ، ولم أغرقْ ، وأنك لما أمرْتَ بإرساء السفينةِ فى تلك الجزيرةِ ، وصعد جميعُ التجارِ إليْها كنتُ فى جملَتِهم ، وكان معى شىءٌ آكلُه فاستطبْتُ مكاناً . . . .

ومن ثم قصصتُ عليه كلّ ما مرّ بى ، وهو ينظُر إلىّ متشككاً فى قولِى . وأتى التجارُ واستمعُوا إلىّ ، فنهمْ من آمَنَ ومنهم من كَذّب .

وجاهدتُ فى إقناعِهم بصدقِ قولى ، دافعاً عنى وَصْمةَ الكذبِ ، وتُهمةَ الاستيلاء على مالِ غيرى . وأخذتُ أُؤيّدُ أقوالِى بالبَراهِينِ وأستشهدُ بعلاماتٍ وأحوالٍ كانتْ منّى ومنهم ، وأذكرُ تجارَ الماسِ الذين التَقيْتُ بهم فى وادِى الماس وأذكر أسماء بلادِهم ، وإذَا برجلٍ قد شقّ الجمعَ من حولِى ، حتى وصَلَ إلىّ وتفرسَ فىّ مَلِيًّا ، ثم احتوانى بين ذِراعيْهِ وقال لِلقومِ :

أنصتوا لِى أيُّها الرجالُ : إن هذا الرجلَ صادقٌ فى كلّ ما قالَ وليسَ بكاذبٍ . ألا تذكرُون أنى قصَصْتُ عليكم يوماً أعجبَ ما مرّ علىّ فى

أسفارِى إلى وادِى الماس ؟ وما أخبرتُكم به عن الرجُلِ الذى طلَعَ مُعلَّقاً فى ذبيحَتِى التى ألقيتُها فيه ؟ وكيفَ أنكم كذبتُمونى فى قصتى ولم تُؤمنُوا بها ؟ ! فالآنَ قد ظهر لكُمْ صدقى من قصتِه وصدقُه من قِصتى .

فقال الرجالُ : نعم لقدْ قصصتَ علينا هذا الأمرَ حقّاً ولم نُصدِّقكَ .

فقال الرجلُ — وكنتُ قد عرفتُ فيهِ التاجرَ الذى تعلقتُ بذبيحتِه وزاملْتُه بقية سفْرتى — : هذا هو الرجلُ الذى تعلّقَ بذبيحَتى ، وأعطانى من الماسِ الغالِى الثمنِ أضعافَ ما كنتُ مقدِّراً أن يعلقَ بها . وقد صاحبْتُه حتى مدينة البصرة ، وعرفنا اسمه وهو السندباد البحرى ووقفنا على باقى قصته التى أخبرَكم بها .

فابتسمَ رئيسُ المركب وقد ظهرَ عليه أنه قد اقتنَع بصدقِ قولِنا وقال لى :

ما علامَةُ بضائِعِك ؟ وما سِمَتُها ؟ وما أنواعُها ؟ وما مقدارُها ؟ وما عدد أحمالها ؟ فأخذتُ أعَدِّدُ له ما يحوِى كل حملٍ منها ، فلم يبقَ لديْهِ أىُّ شكٍّ فى أننى حقّاً السندبادُ البحرىُّ . فجاء إلىَّ وعانقَنى ، وهنأنى بسلامتى وقال لِى : والله ياسيدى إن قصتَك عجيبةٌ ، وأمركَ غريبٌ ، ولكن حمداً للهِ الذى جمع بينَنا وبينَك ، وردَّ تجارتَك ومالَك إليكَ ، وقد عرفتَ أننا كُنّا أمناء عليها حريصين على رَدِّها إلى أهلِك كاسبةً رابحةً .

شكرتُ له حُسن صنيعِهِ . وتسلّمتُ بضائِعِى وتصرفتُ فيها كما

تراءى لى ، وربحتُ فيها ربحًا وافرًا ما ربحتُ فى تجارةٍ مثله ، وما زلْنا نجوبُ البحر ونَطُوف بالجزرُ والموانئ ، حتى وصلْنا إلى بلادِ السِّندِ ، وقد رأيتُ فى البحرِ من العجائبِ مالا يُعدُّ ولا يُحصَى ، ومما رأيتُ سمكةً على هيئة البقَرة ، وأُخرى فى شكلِ الحمارِ ، ورأيت طائراً يخرجُ من صدف البحر ، ويبيض ويُفْرِخُ على وجهِ الماء ، ولا يغادرُ البحر إلى البر أبَدًا .

وأتممنا رِحْلتَنا ووصلْنا بسلامةِ الله إلى البَصرة ، فقضيْتُ بها بضعةَ أيام ثم شددْتُ الرحالَ إلى بغداد ، دارِ السلام ، فوصلْتُ إليها آمِنًا سليما مُعافًى ، وتوجّهتُ إلى دارِى ، والتقيْتُ بأهلى وأصحابى ، ووهبْتُ وتصدقْتُ على المعوزين والأيتام والأراملِ .

ثم قضيتُ مدةً طويلةً وأنا أرتعُ فى بحبوحةِ العيش ونعيمِ الرَّاحة ، وهناءة السعادةِ ، حتى نسيتُ ما أصابنى ، ومَرُّ النهارِ والليلِ يُنْسِى فتاقت نَفْسى إلى السفرِ والتَّرْحَال .

وسأقصّ عليكمْ غداً إن شاء اللهُ حديث السفرةِ الرابعةِ . وأمر السندبادُ البحرى على عادَتِهِ للحمالِ بالعشاء الفاخِرِ وبمائةِ مثقالٍ من الذهب فتعشى وأخذ الذَّهَبَ ، وانصرفَ إلى دارِه شاكراً .

وفى اليوم الثانى حضر إلى منزلِ السندباد البحرى فتلقّاه بالبشرِ والترحابِ وأجلسَه بجانبه ، ولما اكتملَ عقد الجماعةِ ، وتناوَلُوا طعامَهم . ابتدأ يحدّثهم ويقول :



السَّفرة الرابعة

أخبرتكم بما كنتُ عليه من السرور والانشراح بعد عودتي سالماً من سفرتي الثالثةِ ، وكيف ظللتُ أرتعُ في نعيمِ الراحة ، وأنعم في بُحبوحةِ العيشِ وقتاً طويلا نسيتُ معه ما قاسيتُ من أهوالٍ ، ولا سيّما أن العاقبةَ كانت سلامةً وعافيةً ، ومالا كثيرا ، فحدثتني نفسِي أن أعاودَ السفرَ والسياحةَ في البلادِ ، فإن في السفر معرفةً بأحوال البلادِ والعبادِ ، ووقوفاً على عجائِبَ وغرائِبَ ، وزيادةً في العِلْم والمعرفَةِ ، وكسباً للأصدقاء والإخوان ، وعلماً بعاداتِ الناسِ وأخلاقِهم ، وطبائِعِهم ، ورؤية لصنوفٍ مختلفةٍ من الوحشِ والطيْرِ ، وهذه كلُّها أمورٌ إذا ذكرَها الإنسانُ سَهُلَ أمامها كلُّ صعبٍ ، وهانَ كل خَطْب .

أخذتُ شيئاً من مالِي وذهبْتُ إلى سُوقِ التجار واشتريْتُ أنواعاً

مختلِفة من السلَع ، وحزمتُها أحمالاً أحمالا ، وتقلتُها إلى الشاطئ .

وهناكَ أنزلت بضائعِى فى مركبٍ على أهبةِ السفَر ، وكان بصحبتِى جماعةٌ من تجارِ أهل البَصرةِ .

وسار بنا المركبُ على بركَةِ الله الأيام والليالى فى جوٍّ جميلٍ ، صافٍ رائقٍ ، ريحهُ طيبة رُخاء ، تسوقُ المركب على سطح الماء سوقاً هادئاً رفيقاً . وفجأةً انقلب الجوُّ ، واختلفت الريحُ وصارتْ هَوْجاء عاتِيةً ، وهاجَ البحرُ وماجَ ، فاضطَربت السفينةُ ، وتمايلتْ ، وترنحتْ . فأمر الرُّبانُ بإرساء المراسى وَوَقفِ المركب فى وسط البحر خوفاً عليه من الغَرق ، ولكن الريحَ ظَلتْ تلعبُ بالسفينةِ ، وأخذ الموجُ يتقاذفُها ، فما تعتدلُ إلا لتَميلَ ، وما تَميلُ يميناً إلا لتميلَ شِمالاً ؛ فوجفَتْ قلوبُنا ، وزاغَتْ أبصارُنا ، ولا سيما أن الريحَ كانت تشتَدّ عصفاً ، وأن الموجَ كان يزدادُ علوًّا وعُتوًّا ، فتمزقَتْ القلُوع ، وطغى الموجُ ، وهجم الماء على السفينةِ فملأها وفغر البحر فاهُ ليبتَلِعَها ، وأخذ يغيبُها فى بطْنه شيئاً فشيئا ، وحاولَ الربان إنجاءها ، ولكنَّ قضاء الله كان قد سَبق فغرقَتْ ، وقبل أنْ يُفيق أكثرُ من فيها من دَهشةِ البَغْتةِ ، طواهم البحرُ فكانوا من المُغْرقين . أخذتْ أغالبُ الأمواجَ أنا وَبِضعةُ رجالٍ كانوا يجيدُون السباحةَ ، وكانت الأمواجُ تغالبُنا فنغلِبُها حتى ساقَ اللهُ لنا لَوْحاً خشبياً كبيراً فأمسكْناه ، واتخذْنا من أرجُلنا مجاديفَ وسرْنا باللوح فى اتجاه التيار حتى انقَضَى الليلُ وقد تعبتْ أجسامُنا ، وتصلَّبَتْ أطرافُنا وبدأ

الجوعُ يُؤلمنا ، وفى ضَحوةِ النهار — ثارتْ علينا الريحُ من جديدٍ وهاجَ البحرُ ، وارتفعَ الموجُ فسلّمْنا فى أنفسنا ، وأيقنّا ألاّ نجاةَ لنا وأقبلتْ علينا موجةٌ عاليةٌ كالجبَلِ المرتفع ، فأغمضنا عيوننا ، ونكّسْنا رءوسنا ولكنّها اكتسحَتْنا معَها ، وقذفتْ بنا قذفةً هائلةً ، أصابَتْنا منها غشْيةٌ ، ثم انتَبَهْنا بعد قليلٍ فوجدْنا أنفسنا مبعثَرينَ على أرضٍ رطْبةٍ ، تُظلُّها الأشجارُ ، ونظر بعضُنا إلى بعضٍ متَحيِّرين : أفى يقظةٍ نحنُ أم فى حُلْم ، أأمواتٌ نحنُ أم أحْياء ؟!

وقرع آذانَنا زئيرُ البحرِ ، وهديرُ الموج ، ورشقتنا برذاذِ مائِه ، فسمعْنا وأحسَسْنا وعرفنا أن البحر ألْقى بنا فى تلك الأرض ، وأن قلوبَنا ما زالَتْ تنبضُ بالحياةِ ؛ فعُدْنا فأغمَضْنا عيونَنا ورُحنا فى نومٍ عميقٍ من فَرْطِ ما قاسَيْنا من تعبٍ وسَهرٍ وخوْفٍ وجُوع .

ولم ينبِّهْنا من سُباتِنا إلّا عضُّ الجوعِ أمعاءَنا ، فنهضْنا نلبِّى نداءَ بطونِنا ، وطفْنا بالجزيرةِ ، فوجدْنا فيها كثيراً من النباتاتِ والأثمارِ ، فأكلْنا حتى شَبِعْنا ، ثم ابتدأْنا نبحثُ عن مَخْرجٍ لنا .

فسِرْنا فى الجزيرةِ ، وتوَغّلْنا بينَ أحْراجِها ، فلاحَ بناءٌ عالٍ عنْ بُعدٍ فأسرَعْنا فى السّيْرِ إليه ، وأنا قَلِقٌ ، أتوجَّسُ خيفةً من كثرةِ ما مرَّ علىّ مِنْ بلايا عظامٍ ، وكنتُ أخافُ التّصْريحَ بخشْيَتى إلى رِفاقى ، فينسبُونَ لى الجُبْنَ والخَوَرَ ، فتكلّفتُ الشجاعةَ والجلَدَ ، وسايرْتُهم إلى البناءِ العالى .

فلما وصلْنا إليه وجدناه بناءً ضخماً كبيراً، قائماً وسطَ بناياتٍ أخرى صغيرةٍ، وله بابٌ واسعٌ عريضٌ، ذهبْنا إليه.

وما كِدْنا نبلغ عتبتَهُ حتى خرجَ إلينا منه قومٌ حفاةٌ عُراةٌ، لا يسترُ جسمَهم شيْءٌ، وما أفقْنا من فرطِ الدَّهشةِ، وهَوْلِ المفاجأةِ — حتى أحاطُوا بنا، وقبضُوا علينا، دُونَ أن يخاطِبُونا أو نُخاطِبَهمْ، وساقُونا إلى رجُلٍ فهمْنا من جلستِهِ، وممن اصطفَّ حولَهُ من الأتباعِ — أنه مَلِكُهم، وأمرَنا هذا الملكُ بالجلوسِ، فجلَسْنا.

وأحضرُوا لنا طعاماً لم نَعْرِفْ ما هُو، وأمرُونا أن نأكلَه، وما تذوَّقناه حتى عافَتْه نفوسُنا، وكرهنَاه؛ ولكنْ تحامَلَ رفاقِي على أنفُسِهم وصاروا يأكُلون منه وهمْ له كارِهُون، أما أنا فلم أستَطِعْ أن أحاولَ ذلك أبدًا، وإن تظاهَرْتُ أمامَهم بأنِّي آكُلُ مِثْلَهم.

وخار الله لِي فِي ذَلك، فقد كان امتناعِي عن الأكلِ سبباً فِي نجاتِي، وبقائِي حيًّا إلى الآن: فإنه ما كادَ الطعامُ يستقرُّ فِي بُطونِ رفاقِي، حتى تغيَّرتْ أحوالُهم، وأقبلوا على الطعامِ يلتَهِمُونَه كالمجانِينِ من غيرِ وَعْيٍ ولا إحساسٍ؛ فلما رأى منهم هَؤُلاءِ العراةُ ذلك، أحضرُوا لهم دُهْناً وكأنَّه دهن النَّارجيلِ، فسقَوْهم منهُ، ودهنُوا أجسامَهم به.

فلما شرِبُوا، اشتدتْ أعراضُ البلَهِ والجنُونِ بهم، وزاغَتْ عيونُهم، وصارُوا يُقبِلون على كل ما يأتُونَهم به مِنْ طعامٍ فيأكلونه، وما يُقدِّمونه لهم من شرابٍ فيشربُونَه، وكنتُ أنا أصْطنِعُ الحيلَةَ والخِداعَ للتخلُّصِ

من الشرْب والأَكْل وكنتُ أُجارِى رفاقِى فى حركاتِ العَتَهِ والبَلَهِ التى يأتُونها حتى لا يَفْطِنَ إلىَّ أحدٌ، من هؤلاء القَوْمِ .

واشتدَّ حزْنى وأسفِى على حالِ هؤلاء الرفاقِ ، وأخذتُ أتحسَّرُ عَلَى ما حلَّ بهم ، ولكنَّ ذلك لم يَطُل كثيراً فإنّهمْ أصابَهمْ ما أصابَهمْ ، ولم يَبقَ إلا أنْ أُفكّرَ فى نَفْسى .

تحوّل تفكيرى إلى نفسِى ، وإلى ما سيَحُل بى . ورأيتُ أن أعملَ سريعاً على نجاتِى من بَيْن براثِن هؤلاء القوم قَبْلَ أن يفْطِنُوا إلىَّ .

وبينَما أنا أفكّرُ فى ذلك إذ رآنى بعضُهم أتصَنّعُ ما يعمَلُه رفاقِى ، إذْ أنّى لسْتُ مصاباً مثلَهم ، فنظروا إلىَّ نظرةً ذاتَ مَعْنى ثم تركُونى وشأْنِى ، ولم يُعِرْنى أحدٌ منهم أقلَّ اهتمامٍ لما صِرْتُ عليه من الضَعْفِ والسَّقمِ والهُزالِ ، فى حين أنّهم سلَّمُوا رفاقى الذين ذهبَتْ عقولهُم إلى شخصٍ منهم ، يَخرجُ بهم إلى الفَلاةِ كلَّ يومٍ فيرعَاهُم مثل ما يَرعى البهائِم ، فكثُر لحمهُم وشحمهُم ، وغلُظتْ أجسامُهم من فرطِ ما كانُوا يلتَهِمونَ من طَعامٍ لأنّ ذهابَ عقولِهم جعلَهُم لا يُحسُّون جوعاً ولا شبعاً ، وأدركتُ أن هؤلاء العراةَ ، قومٌ مجوسٌ، وأن ملكهم غولٌ من آكلِي لحوم البَشرِ ، وأنهمْ يتصيدُون كل مَنْ يسوقُهم سوءُ طالِعِهم إلى الاقْتِرَابِ من بلَدِهم ، فيقبِضُون عليْهم ، ويفعلُون بهم ما فعلُوا برفاقى فتذهلُ عقولُهم وتنْطَمِسُ أذهانُهم ، ويُقبلونَ على الطعامِ بشراهةٍ فيلتهمونهُ التهاماً ؛ فيزيد لذلك وزنُهم ، ويمتلئُون شحماً ولحماً ، فيذْبحونَهم ويطهونَهم

لملكهم أما أصحابُ الملكِ فيأكلونَ اللحم نيئاً دون شيّ أو طَبْخ . هَالني ما رأيتُ ، فاحتَلتُ حتى أفلَحتُ فى التسلُّلِ من هذا المكانِ البَغيض ، وابتعدْتُ بعيداً فى الخلاء ثم أطلقت ساقىّ للريحِ ، وما زلتُ أعْدُو حتى أشرفتُ على البحرِ . فجَدَدْت فى السيرِ إليهِ وكلّى أملٌ فى النجاةِ كما عودتْنى رحمةُ اللهِ وإذا برجُلٍ يجلسُ أمامِى على صخرةٍ مرتفعةٍ بشاطىء البحر ، فدقّقْتُ النظر إليه . فإذا هُو الراعِى الذى وُكل إليْه أمرُ رعى رِفاقى . وما لبثْتُ أن تبَيَّنْتُ بين الصخورِ عَدَداً كبيراً منْهم ومن أشباهِهِم ، فاستَعذْتُ باللهِ وتحولْتُ أريد الفَكاكَ قبل أن يَرانى ولكنَّهُ كان قد رآنى ، وسبقَتْ عينه عينى وأدركَ أنى مالكٌ لعَقْلِى ، ولم يصبْنى ما أصابَ أصحابى ، فاتجه نحوِى وأشارَ ألا تَخفْ فإنك آمِنٌ ، فوقفْتُ متردّداً ، أنظرُ إليه مُتوقّعاً شراً يُصيبُنى منه ولكنَّه قال :

ارجِعْ قليلاً إلى الخلفِ ، وسِرْ فى الطريقِ الذى عَنْ يمينِكَ ، تصل إلى الطريقِ القَويم .

فهزَزْتُ له رأسى ، ورجَعتُ كما أشارَ علىّ ، فوجدتُ الطريقَ كما وصفَ ولكنّى كنتُ لا أزالُ غير مطمئنّ إلى نوايا الرجُلِ معى ، وهل هو يَبْغِى خلاصِى حقّاً من قوْمِهِ وهو منْهم ، أو هو يُريدُ أن يوقعَنى فى شرَكهِم بعد فكاكى منهُم بما اصطنَعْتُ من الحيلةِ .

وعلى أىّ حالٍ فإنى لم أجدْ مفرّاً من السير فى هذا الطريقِ .

وظلِلْتُ أسيرُ إلى أن غابَتْ الشمسُ ، وأسدِلَتْ أستارُ الظلامِ دُونَ

أنْ يعترِضَ سبيلِي معترِضٌ . فجلسْتُ لأستريحَ . وأردتُ أن أنام فلمْ يطرُقْ جَفنِي النومُ ، من شدةِ التعبِ والجوعِ والخوفِ ، فنهضْتُ وواصلْتُ السيرَ بقيةَ الليلِ إلى أن بَزَغت الشمسُ ، فوجدتُنى فى طريقٍ به بعضُ النباتاتِ والأعشابِ فاقتلعْتُ منها ما آكُلهُ وأمسِكُ به رمَقِي وبقيتُ على هذه الحال سبعةَ أيامٍ : أسيرُ فى الجزيرَة أتبلَّغُ من نباتِها ، وأشربُ من ينابيعِها ، دُونَ أن يصادِفَنى إنسانٌ أو حَيوان ، فلَمْ يقع لِي حادثٌ جَديدٌ .

فلما كانت صبيحةُ اليومِ الثامن خرجْتُ أسيرعلى عادَتى، فطوَّحَتْ بى رجلاىَ بعيدًا وأمعنتُ فى السير حتى أشرفْتُ على نهايةِ الجزيرةِ ، وهناكَ لاحَ لى شبحٌ من بَعيدٍ . فاتخذْتُ جانبَ الحذرِ . وتقدَّمتُ متلصِّصاً أسترقُ الخطا ، لأتبيَّنَ كنْهَهُ . فقد علمتْنى التجاربُ التى مرَّت بى وُجوبَ الاحتراسِ والتحرّزِ .

استبانَ لى فى هذا الشبَحِ رجلٌ ضمن جماعةٍ من رجالٍ ينتشِرُون فى أرجاءِ المكانِ ويجمعُون حب الفُلفل من الأشجارِ .

استولَتْ عليَّ الحيرةُ ؛ أأظهرُ لهم ، أم أظلُّ مختَفِياً عنهم ؟ !

قلَّبْتُ الأمرَ على وَجوهِه ، وفرضْتُ جميع الاحتمالاتِ التى يُمكِنُ أن تقعَ ؛ وقدرتُ الحِيَلَ التى يمكن أنْ أتخلَّصَ بها مما عَسَى أن يُصادِفَنى من الصِّعابِ ، بعد هذا كلِّه رأيتُ أن أظهرَ لهم ، وأن ألقاهم ، ولا سيما أنى رجَّحْتُ أنَّهم جماعةٌ من التجارِ ، وإن لَمْ أُظهِرْهم على حقيقتى

وأَصْطَحِبْهم فى سَيْرِهم ، فلَنْ تَكونَ لى نجاةٌ مِن هذا المكانِ أبدًا .

فقصدْتُ إليهم فما رأَوْنى حتى أحاطوا بى ، وسألونى : من أَنْتَ ؟ ومن أَيْن أقبلتَ ؟ .

فأخبرتُهم بحالى ، وبما مَرَّ علىَّ ، وبما قاسيتُه ، فتعجَّبُوا من نَجاتى من المُراةِ آكِلِي لحومِ البشرِ ، وهنَّئُونى بسلامتِى ، وأبقونى معهم حتى فَرَغُوا من عملِهم ، ودعونى إلى مشاركَتِهم الطعامَ ، وكان طعاماً لَذيذًا سائغاً أقبلْتُ عليه بنَهمٍ بعد أنْ حُرِمْتُ مثلَه مدةً طويلة .

ولما أزْمعوا الرحيل أخذونى معهم إلى سَفينَتِهم ، التى ما لبِثَتْ أن أَقلَعت بنا مُيمِّمَةً شطرَ بلادِهِم .

ولما وصلنا إلى ديارِهِم ، عرضُوا أمرِى على مِلِكِهِم . فرحَّبَ بى ، وأكرمَنِى وسألَنِى أن أقصَّ عليه قِصَّتى ، فقصصتُها عليه ، فتملكَهُ العجبُ ، وازداد إكرامُه لِى ، وأذِنَ لى بالخروجِ والتفرّجِ على مدينتِه .

خرجْتُ مع جماعةٍ وكلنى الملك إليهم ، وطفْتُ فى نواحى المدينةِ . فوجدتُها مدينةً واسعةً ، عامرةً كثيرة الأسْواق . زاخرةً بالحياةِ ، كثيرةَ الحركةِ ، مزدحمةً بالسكان ، ومنهمْ عددٌ كبيرٌ يمارسُ البيعَ والشِّراء ، فارتاحَتْ نفسى إلى هذه المدينةِ ، واستأنسْتُ بأهْلِها ، وشكرتُ عِنايةَ الله التى ساقتْنى إليْها ، فأكرمَنى ملكُها وسُكّانُها ، ولاحظتُ فى أثناء تجوالى أنّ أهلَ المدينةِ : وَوُجهاءها وتُجارَها ، وصِغارَها

وكِبارَها – يركبون الخيولَ من غيرِ سُروجٍ وكان الملكُ نفسُه إذا ركبَ حصاناً ركبَه عارياً من غيرِ سَرْجٍ.

فقلْتُ للملكِ يوماً : يا مولاىَ لماذا لا تركَبُ على سرجٍ فإنَّ فيه راحةً للراكبِ علَيْه ؟!

فقالَ الملكُ : وما هو السَّرْجُ ؟ إنّنا لا نعرفُه، ولا نعرفُ الرُكُوبَ علَيْه ؟ .

فقلتُ له : هل تَأذنُ لى يا مولاى أنْ أصنعَ لكَ سرجاً لتُجرِّبَهُ .

فقال : افعلْ ما شِئْتَ .

فطلبْتُ ما يلزمُ لصُنعِه، فأمر لِى به . وطلبتُ نجّاراً حاذِقاً فأحضَره، ومكثْتُ معهُ أُرشدُه إلى ما يجبُ أن يتّبِعَه فى صناعةِ السّرجِ، ثم أخذْتُ صُوفاً ونَفَشْتُه، وصنَعتُ منه لبداً وأحضَرتُ جلداً وهيأتُه على صورةِ السّرجِ، وحشوتُه باللّبَدِ المصنوعُ من القُطن، وركّبْتُ سيورَه، وشددْتُ شريحتَه، وأحضرتُ الحدادَ ووضّحتُ له كيفَ يكونُ الرِّكابُ، فصَنعهُ ثم بردْتُه، وطليْتُه بالقَصدِير وصقَلتُ السرجَ، وجعلتُ له أهداباً من الحرِيرِ .

وانتَقَيْتُ بعد ذلك جَوادًا من أكرمِ خُيول الملكِ وشددْتُ عليه السرجَ، وعلّقْتُ فيه الرِّكابَ، وألجمتهُ، وقدمتهُ إلى الملكِ، فسرّهُ منظرهُ ولما رَكبَ عليه فرِحَ به فرحاً عظيماً، وشكرَنِي، ومنَحنِي هبةً كبيرَةً .

وأعجبَ به الوزيرُ كذلك ، فطابَ منى أن أصنَع له مثلَه ، فقبلتُ ، وأخذتُ عليه أجْرًا .

وقصدَنِى الناسُ بعدَ ذلك ، من أربابِ الدولَةِ والأعيان وغيرهم ، يطلُبُون منّى صنْعَ سروج لهم فاستأجرتُ دكانًا أعملَ فيه سَرّاجًا . واتخذتُ من النجارِ والحدادِ شريكَيْن وعلمتُهما صنعةَ السروجِ واللجمِ ، وتعاونًا فى صُنعِ ما يُطلَبُ منّا .

وربحتُ من ذلكَ مالًا كثيرًا ، وأصبحَ لى عندهُم منزلةٌ رفيعةٌ ، ومكانةٌ ملحوظةٌ . وذاتَ يومٍ . قال لى الملكُ ، وكنتُ بحضْرتِه :

يا هــذا لقَدْ صرتَ واحدًا منّا ، ولكَ لدينا منزلةٌ كريمةٌ ، ولا نَستطِيعُ مفارقَتَكَ لنا ، وأوَدُّ أن تُطِيعنِى فيما سأختارُه لكَ .

فقلتُ له : يا ملكَ الزمانِ ، إنّى أسيرُ كرَمِك ومَعْروفِك ، وكلمتُكَ عِنْدى أمرٌ ، وإشارتُك مُطاعة .

فقال : أرِيدُ أن أزوِّجَك من عندِنَا زوجةً حسنةً مليحةً ظريفةً ، ذاتَ مالٍ ودِينٍ ، فيطيب لكَ مقامُك عندَنا .

فلما سمعْتُ هذا العرضَ الذى لم أكُنْ أتوقعُهُ من الملكِ خَجِلْتُ ، ولم أحِرْ جَوابا .

فقال لى : لمَ لا تُجيبُ ؟ .

فقلتُ : الأمْرُ أمرُكَ يا ملِكَ الزمانِ .

فأمرَ من فورِه بإحضارِ القاضِى والشُّهودِ ، وزوجَنِى من امرأةٍ

كريمة الحسبِ والنسبِ ، على غايةٍ من الجمالِ والبهاء ، ذات مالٍ وعقار .
وأفردَ لى الملكُ بيتاً جميلا فيه خدمٌ وحَشمٌ ، ورتّب لى رواتِبَ وجرَايات ،
ولذّ لى العيشُ ، واستطبْتُ حياتى الجديدَةَ ، ونَسيتُ ما مرّ بِى من شقاء ،
وما تحملتُه من متاعِبَ ، وما نزلَ بِى من بلايا .

ووافقتْنى زوجَتى وكانتْ مثالَ الزوجةِ المطيعةِ الحريصةِ على راحةِ
زَوجِها ، العاملةِ على إسعادِه ، المضحيةِ بكلّ شىء فى سبيلِ إرضائِه ،
فنزلتْ من قَلْبي منزلةً عظيمةً ، وأحلَلْتُها فى نفسِى محلّا رَفيعاً ، لا آلُو
جُهداً فى إرضائِها ، وتوفيرِ الراحةِ لها . وقلتُ لنفسِى يوماً : إذا قُدِّرَ لى
أن أعُودَ إلى بلادِى فلا بُدّ أن آخذَها معِى لأنى أصبَحتُ لا أُطيقُ
الحياةَ بدونِها ، ولا يهنأُ لِى عيشٌ إلا معَها .

وفى يومٍ سمِعتُ أن زوجةَ جارِى قد توفّيتْ ، وكان صديقاً لِى ،
فذهبتُ إليه لأُعزّيهُ فى امرأتِه ، قبلَ دفْنِها ؛ فوجدتُه حزيناً مهمُوماً واجِماً
قد علَتْ وجهَهُ كآبةٌ ، وتملّكَهُ سُهومٌ شديدٌ ، فقلت له مُواسِياً ، بعد
أن عزيتُه فيها :

يا أخى لا تحزنْ هكذا ، ولا تَبْتَئِسْ ، فسوفَ يعوضُكَ اللهُ خيرا ،
ولعلّهُ يرزقُكَ أحسنَ منها فبكَى بكاءً شَديداً . وقال لِى :

يا صاحِبى كيفَ يعوضُنى اللهُ خيراً منها ؟ أو كيفَ أتزوّجُ غيرَها ؟
ولم يبقَ من عُمرى إلا يومٌ واحِد !!

فقلتُ : يا أخى عُدْ إلى عقلِك ، ولا تقُلْ عن نفسِك مثل هذا القوْل ،

وكل شِدَّةٍ مصيرُها إلى الزَّوال. ومَا تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تكسِبُ غدا، ومَا تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموت.

فقالَ وهو لا يزالُ يبكي: وحياتِك عِنْدِي. ما بَقِيَ لِي إلا اليومُ، ولن تَرانِي بعدَ ذلك أبدا.

فقلتُ، وقد تعجبْتُ لقوله: وكيفَ ذلك يا صَدِيقِي؟!

قال: اليومَ سيدفِنُون زوجَتِي، ويدفنُونَنِي معها. فهذه هي عادتُنا في بلادِنا إذا ماتَت الزوجةُ يدفنونَ معها زوجَها وهو على قَيدِ الحياة، وإذا ماتَ الزوجُ يدفنونَ معه زوجتَه كذلك، حتى لا يَتمتَّعَ أحدُهما، ولا يلتذ بعيشٍ بعد رفيقِه.

فقلتُ متحسِّرًا: وقد اشتدَّ بِي العجبُ، واستبدَّ بِي الألَمُ: يا وَيلاهُ، واللهِ إن هذه العادةَ قبيحةٌ جدًّا، ولا يقدرُ عليها أحدٌ مطلقاً.

وبينما أنا أخاطبهُ، أخذ الناسُ يتوافدُون على الدارِ زرافاتٍ ووحْدَانًا، ويتقدَّمُونَ منه يعزُّونَه في نفسِه وزوجَتِه. وشرع نفرٌ منهم في تجهيزِ الزوجَةِ الميتةِ على عادتِهم، فأحضروا تابوتًا، ووضعوها فيه، وساروا جميعاً يصحَبُهم زوجُها، حتى صاروا خارجَ المدينةِ. وأتَوْا إلى مكانٍ بجوار جبلٍ من الصخور، قريبٍ من البحرِ، ورفعُوا عنه حجراً كبيراً، ظهرتْ من تحته بكرةٌ مثل بكرةِ البئرِ لف عليها حبلٌ متينٌ، ومن تحتها فوهةٌ عميقةٌ مثل الجبِّ. فألقَوْا بالمرأة الميتةِ فيها. ثم جاءوا بزوْجها فربطُوه

بالحبل ، وأنزلوه إلى الجبِّ ، ومعه إناء ماء كبير ، وزادٌ مكوَّن من سبعة أرْغفةٍ .

فلما تدلَّى الرجلُ إلى أسفل الجبِّ ، خلَّصَ نفسَه من الحبلِ فسحبُوه ، وغطوا فوهَةَ البـــئرِ بذلك الحجرِ الكبير ، كما كان أوَّلا . ثم انصرفُوا لشأنِهم .

أخذتْنى حسرةٌ على ذلك الرجُلِ الذى دُفِن حيًّا ، وتوجَّهت من فوري إلى الملكِ وقلتُ له :

يا مولاى ، كيف تدفِنُون الحىَّ مع الميتِ فى بلادِكم ؟ .

فقال : اعلمْ أن هذه هى عادتُنا فى بلادِنا ، توارثْناها عن أجدادِنا ، فإذا ماتَ الرجلُ تُدفنُ معه زوجَتُه ، وإذا ماتَت المرأةُ يدفَنُ معها زوجُها ، لأنه لا يَجوزُ عندنا أن يفرق بيْنَ الرجل وزوجِه لا فى الحياة ولا بَعْد المماتِ .

فقُلتُ : وَكذلك حالُكم مع الغَريبِ مِثْلى إذا ماتَتْ زوجتُه عندكُم ؟ .

قال : نَعمْ .

فاضطربْتُ وفاضَ بى الأسى ، وكادَتْ أن تنشَقَّ مرارَتى غمًّا وكمدا ، وخَوْفًا من أن تَموتَ زوجَتى قَبْلى ، فيدفِنُونى معها حيًّا .

وصرتُ بعد ذلك أتلهَّى عن ذلك الخاطِرِ ، وأحاولُ إبعادَه عن ذِهنى باحتمالِ موتى أنا أوَّلا ، وتجنيبى شرَّ هذا العذابِ ؛ وكنت بجانبِ ذلك أبالغُ فى رعايةِ زوجَتى ، وأحافظُ عليها من كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وكنت

أحرصُ منها على صحّتها : فإذا اشتكتْ ألماً أو مغصاً أو زُكاماً أو دُوَاراً أو أيَّ شيء — ارتبكْتُ ، واضطربْتُ ، وضاقت الدنيا في وَجْهى ، وبذلتُ كل نفيسٍ وغالٍ في علاجها وتخليصها من مرَضها .

ولكنْ ما كلُّ ما يتمناه المرء يدرِكُه ، فما مضى وقتٌ طويلٌ على موتِ زوجةِ جارى ، حتى مرضَتْ زوجتى مرضاً عُضالا ، فجزعْتُ عليها وعلى نفْسِى ، وأخذتُ أعالِجُها ، وأمرّضُها ، بكل ما وسعتْنى حيلتى ، ولكنْ ، حُمَّ القَضاء ففاضتْ روحُها وماتَت ، وسقطْتُ أنا بجوارِها شبهَ ميتٍ .

وجاء الملكُ ليواسيَنى ، واجتمعَ الناسُ يعزونَنى ويعزونَ أهلَ زوجتى ، وأحضرُوا الغاسلةَ فغسلتها . وألبَسوها أفخرَ ثيابها ، وحَلَوها بأغلى حُليّها ووضعُوها في التابوتِ وحمله بعضُهم ، وساروا جميعاً ، وأنا بيْنهم أسير كالحالِمِ من فرْط الذُّهُول .

ووصلْنا إلى الجبلِ ، ورفعوا الصخرةَ عن فوهة الجبِّ ، وألقوا بالمُتَوفَّاة فيه ، ورأيتُ أصحابى وأهلَ زَوجَتى يقبلون على ويودعُونى ، فصحوْتُ من سُباتى وجَرفتْنى موجةٌ من البكاء والصراخِ ، وأخذتُ أصيح فيهم :

أنا رجُلٌ غريبٌ ، ولا دخلَ لى بعاداتكم .

فنظرَ بعضُهم إلى بعضٍ مشفِقين ، وتقدَّم نفرٌ منهم ، فأمسكونى ، ليربطونى بالحبلِ ، وأنا أتملصُ منهم ، وأتوسَّلُ إليهم أن يطلقونى ، وأستشْفع لهم بإلههم وملكِهم وأحيائِهم ، وكلما تكاثرُوا على زاد نحيبى وإعْوالى ، وما زلْنا في أخذٍ وردٍّ ، وإرخاء وشَدٍّ ، حتى خارتْ قوايَ ،

وضَعُفت ، فقلت لهم بصوتٍ خافت ضعيفٍ : لا تمسّونى ، لا تقربونى ، أنا رجلٌ غريبٌ ، ولا صبرَ لى على تقاليدِكم .

ولكنّهم لم يأبَهوا لى ، ولم يُعيروا توسُّلى أذُناً ، وأمسكونى على الرغمِ منّى وربطُونى بحبلِ الجب ، وربطُوا معى سبعة أقراصٍ من الخبزِ ، وإناءً من الماء وأنزلُونى فى ذلك الجُبّ . وقالوا لى :

فك نفسك من الحبالِ فلم أرضَ أن أفكّ نفسى ؛ وظللْتُ أستعطِفُهم وأسترحِمُهم أن يُخرِجونى . فلما لَمْ يجدُوا معى جَدوى ، ألقوا علىّ الحبالَ ، وانصرفُوا بعد أن سَدُّوا فوهةَ الجُب .

وعلى شُعاعِ النور الضّئيل الذى كان ينفُذُ خلالَ شقوقِ الفوّهة رأيت نفسِى فى مغارةٍ كبيرةٍ ، واسعةٍ جدًّا ، لم تكْشِفْ عينى آخرَها ، لتكاثُفِ الظلام فى أرجائِها . ورأيت من حَولِى جُثثاً مكدسةً ينبعثُ من أكثرها رائحةٌ كريهة منتنةٌ ، أقشعرّ جسدِى من رُؤيتها ، فانتبذت ناحيةً ، وجلستُ أبكى نفسى وأرثيها ، وأعود باللائمةِ عليْها ، وأحملها وِزْر ما حلّ بى أولاً وأخيراً بالزجّ بى فى المخاطِر بعد أن كنتُ هانِئاً ناعِماً مستقرًّا فى وطنى بين أهلِى وأحبابى ، ثم رضائى بالزواج فى غَيرِ بلَدى ، وآمنْتُ بأنّى أستأهِلُ كل ما مرّ علىّ من مَصائِب ، وما ينتَظِرنى من مَوتٍ شَنِيع .

ومكثتُ على هذا الحال وقتاً لا أدرك مدّتَه ، ولا أحسُّ مسيراً لساعات الزمنِ فيه ، فإنى لا أعرفُ ليلى من نَهارِى ، ولا أشعر بأى ميلٍ

إلى طعامٍ أو شرابٍ ، وقد غشيتْ نفسِى وساءتْ حالِى ، وماتَ أملِى ، فطرحْتُ نفسِى على الأرضِ أنتظر الموتَ وأستعجلُه، ولم يأْتنى ما انتظرتُه، وإنما رُحْت فى نومٍ لا أدرى كيف أتانى رغم كلِّ ما بى ولا أدرى أطالَ نومِى أمْ قصرَ ، ولكنِّى صحوتُ وفى فمِى مرارةٌ كمرارةِ العلقم ، ويكادُ حلقِى أن ينشقّ من اللهيب . فجاهدْتُ حتى استويْتُ جالساً ، وأخذتُ أتحسّسُ بيدِى إناء الماء حتى وجدْتُه ، وشربْتُ منه جرعةً أطفأتُ بها نارَ ظمئى ، ورطّبْتُ جفافَ لسانى ، ثم سرَّحْتُ يَدِى حتى عثُرت على الخبزِ فأخذتُ كسرةً وصرتُ ألوكُها بين أسنانى حتى استطعْتُ ابتلاعها عندئِذٍ ارتدّ إلىَّ بعضُ الشعورِ بالحياةِ ، ورأيتُ ألا أستَسلمَ هكذا سريعاً للموتِ بل يجب أنْ أجاهِدَ فى سبيل الحياة ، وأبحثَ لى عن طريقةٍ تُنجينى من هذا المكانِ .

فنهضْتُ قائماً وسرتُ فى المغارةِ أتحسّسُ جدرانَها ، وأختبِرُ صخورَها ، وأطوفُ فى أنحائها لعلّى أجدما أنشُدُه ، فوجدتُها مغارةً متسعةَ الجوانبِ ، خاويةَ البطُونِ ، صلبةَ الجدرانِ ، تنتثرُ فى أرضِها جثثٌ كثيرةٌ ، قد فُرشَ أديمُها بعظْمٍ رميمٍ . ولم أهتدِ إلى منفذٍ يمكنُ أن أتخذَ منه وسيلةً إلى النجاةِ ، فساودنى اليأسُ ، وعدْتُ منخذِلاً إلى زادِى ، فأخذْتُه وبحثت لى عن مكانٍ بعيدٍ عن الجثثِ الحديثةِ فسوّيْتُه وجلَست ، أنتظر ساعتِى التى لا مفرّ منها ولا مَحيدَ ، ولكنِّى آليتُ على نفسِى أن أقتصِدَ

فى زادِى ما أمكن فلا أتبلّغُ بلقمةٍ ولا أعتَصِر جرعةً إلا إذا وَجدتُ نَفسى فى حاجةٍ قُصوَى إليها .

وبينَما أنا أفكرُ يوماً فيما سيَصِيرُ إليه حالِى بعد فراغِ مؤونَتِى . إذا بصوتٍ فرقَعةٍ شديدةٍ وضوء نافذٍ ساطِعٍ قد غَشَّى بصرى ، فساءلتُ نفسِى : ما الخبرُ يا ترى ؟

وظلّلْتُ عينىَّ بيدِى ، وتتبّعْتُ وميضَ الضوء ، فرأيتُه منبعثاً من مَدْخلِ المغارَةِ ، وقد رفِعتْ من فوقِه الصخرةُ ورأيتُ القومَ واقِفينَ من حولِه يُلقونَ بميّتٍ جَديد ، ثم تلوا ذلك بإدْلاء امرأةٍ بالحبالِ وهى تصرخُ وتوَلْولُ نادبةً نَفْسَها .

عرفْت أن ضَيْفاً جَديدا سيَحُل بالمغارةِ ، ويقاسِمُنِى شقَائِى حتى تَحِينَ مِيتَتُه بعد فراغِ زاده الذى زُوِّدَ به .

وجَالتْ بخاطِرى فكرةٌ طارئةٌ : لماذا لا أُرِيحُ هذا الطارِقَ مِنْ شر العذَابِ الّذِى سيقَاسِيه مِثْلى ، وأقرّب مِنِيّتَه ، بدلا من هَولِ ترقّبها ساعةً بعد ساعة .

رحَل القومُ بعد أن سَدُّوا منفَذ المغارةِ ، وتركُوا المرأةَ تَنوحُ ، وتبكِى نفسَها ، وكُنتُ أراها ولا تَشْعرُ بِى . فتناولتُ قصَبةَ رجلٍ ميّتٍ ، وتسلّلْتُ نحوَها ، وأهْويتُ بِها على أمّ رأسِها ، فسقطَتْ على الأرضِ مغشِيّا علَيْها ، فوالَيْتُ الضّربَات حتى فاضَتْ روحُها ! فنَحّيتُها جانِباً ، وكانتْ تتحلّى بشىء كثيرٍ من الحُلِىّ والجواهِرِ ، وحمَلتُ زوجَها



إلى جانبها وأخذتُ زادَها ، وعدتُ إلى مكانى ، وقد أزمعتُ الاقتصادَ في تناوُلِه حتى يأتِيني صيدٌ جَدِيد .

ما أحببتُ الشر ، وما كُنتُ يوماً من الأيامِ شِرِّيرا ، ولكنَّ الحياةَ غاليةٌ ، لا يسترخصُها الإنسانُ ولا يُفرِّطُ فيها مهْما كانت الأسبابُ ؛ وإن الضيوفَ الذين يَنزِلُون هذا الجُبَّ قد أسلمُوا أنفسَهم للموتِ ، فلا بأسَ أن عَجّلْتُ بهم لأعِيش .

وإلى هذا التفكير ارتاحَ قَلْبِي واطمأنّتْ نفسِي .

وقضَيتُ بالجُبِّ زمناً طويلا ، انقلَبْتُ فيه إلى وَحْشٍ جائِعٍ ، قابعٍ ليتَصيّدَ فرائسَهُ ، فكُلما فُتِح الجبُّ وأُلقِيَ إليْه بميّتٍ جَديد ومعه رَجُلٌ أو امرأةٌ قمتُ إليهِ فقتلتُه في حُلكةِ الظلامِ ، واستولَيت على زادِه ، أتقوّتُ منه حتى تُساقَ إلى فريسةٌ جَديدَة .

وكانت كلّما ثارتْ نفسِي على هذا الوَضعِ الوَضيعِ الذى ارتضيْتُه لها أسكَتُّها بأنه مجاهَدةٌ ومكافَحةٌ في سبيلِ الحَياةِ . ودَفعِ الخطرِ عَنْها .

وكلما أنبني ضميرى على ما أتيْتُه من إزهاقِ الأرواحِ أسكَتُّه بأن هذه الأرْواحَ صاعدةٌ قريباً لا محالَة إن لم تَكُن اليومَ فغَدا وإنما أكفِي صاحبَها ويلات الانتِظار والعذابِ .

عشْتُ كذلك وقتاً ما ، وحشاً ضارِياً ، طالتْ أظفارُه ، واسترسَلَ شعرُه ، وبشعَ منظرُه ، واسترخَى لحمُه ، وزالتْ عنه آدميّتُه ؛ ولكنها كانت تُعاودُه أحْيانا .

وذات يوم كنت فى جدَلٍ مع نفسى التى كانت لا تستَطيعُ استطابةَ هذه الحياةِ، ولا الاستكانة إليها ، وكانت قد انتصرتْ علىَّ، وأرتنِي ألا جَدْوى ولا معنى لحياةٍ مرةٍ أليمةٍ موحشةٍ فى مقبرةٍ، لا تحوطُنى فيها إلا الجثث ، ولا تقعُ عينى داخلها إلا على رِمَمٍ وعِظامٍ، ولا أستنشِق فى هوائِها غيرَ رائحةٍ منْتِنةٍ كريهَةٍ، ولا عملَ لى غيرَ إزهاقِ الأرواحِ لآخذ زادَ أصحابِها أتبلَّغُ به ليُعينَنِي على هذه الحياة الأليمة.

ثم أين هِيَ الحياةُ ؟!

أهذه الحياةُ التى أحياها هى الحياة ؟!

إن الموتَ خيرٌ منها كثيراً .

وبينما أنا أعانى هذا الصِّراعَ الهائِلَ المحتدِمَ المضطَرِم فى دَخيلةِ نفسِى، سمعتُ صوتَ حركةٍ خفيفةٍ فى الجانِبِ الآخرِ من الجُبِّ ، فأصختُ بسمْعِى فتكرَّرَ الصوتُ ، فنهضْتُ وتسلَّحْتُ بسلاحى ، وهو قصبةٌ من عظْمٍ ؛ ويمَّمتُ شطرَ الصوتِ ، وأنا لا أزالُ أكذِّبُ سمعِى ؛ فبابُ المغارَةِ لم يُرْفعْ عنهُ الحجَر ، فضلا عن أن الوقْتَ كان فجراً كما نبأتْنى بعضُ شعاعات الضوء التى تنفُذ من خلالِ شُقوقٍ بينَ الفوَّهةِ والصخْرةِ التى توضَعُ عليها ؛ وهو الوقت الذى لم يعتد القومُ أن يأتُوا فيه ليُلقُوا بميتٍ جديد ، وبضَحيةٍ جديدة .

إذَنْ ممَّن يصدُرُ هذا الصوتُ ؟ . وتقدمتُ أتفرَّسُ فى الظَّلام ، الذى اعتادَتْ عيناى الرؤْيةَ فيه ، فأبصَرْت شبحاً أسودَ يوَلِّى عند ما أحسَّ

حركةَ سَيْرِى فتعجَّبْتُ من ذلك وأدركْتُ أنه وَحشٌ أتى ينهَشُ جثَثَ الموتَى ، ولكنْ من أينَ أتى هذا الوَحْشُ ؟ .

وتَبِعتُ هذا الشبحَ الهاربَ ، لأعرِفَ المصدَرَ الذى أتى منه ، فرأيتُه قد اتَّجَهَ إلى صَدْرِ المغارَةِ ثم اختفَى عنْ بصَرِى . فتقدَّمتُ أحاوِلُ أن أشُقَّ بناظِرِى حجُبَ الظَّلامِ ، فلاحَ لِى من بُعدٍ وسط هذا السوادِ شىءٌ يلمع كالنَّجمِ الساطِعِ فى الليلةِ الحالـكَةِ . ثم لم يَلْبثْ أن اختفَى ، ثم عاوَدَ الظهورَ ، وهكذا ظلَّ يختفى عن عَيني تارةً ويظهَرُ أُخرَى ، وأنا أحثُّ الخُطا إليـــه فى طريقٍ وعْرٍ آخذٍ فى الارْتفاعِ ، تعوقُ السيرَ فيهِ الصخورُ والأحْجارُ .

ووضَح لى الضوءُ ، وصرتُ كلما اقتربْتُ منه زادَ أمامى اتِّساعاً ، وازداد وُضوحاً ، حتى أشرفْتُ عليه . فظنَنْتُ أنه منفَذٌ آخَرُ ينفذُ إلى الخارجِ ، فاستخفَّنى الفرحُ ، وهرعْتُ نحوَه ، فصار ظَنِّى يَقيناً ووجدتُه فجوةً صغيرةً كالثقْبِ فى جدارِ المغارةِ ، رجع لِى أنَّ الوحُوش قد ثقبَتْها لتنفُذَ منها إلى داخلِ المغارةِ لتأكل من جُثَثِ الموتَى .

ولا يستطيعُ امرؤٌ أن يُدْرِكَ مقدارَ موجةِ الفرحِ الهائلةِ التى غمرتْنى ، ولا أن يدُورَ بخلدِه فكرةٌ عما غدوْتُ عليه من خِفَّةِ الطَّربِ ، ولا أنْ تَطوفَ بمخيِّلتِه صورَتى وأنا أرْقصُ وأُصَفِّق ، وأنط وأثِب ، وأُهمهِمُ بكلماتٍ هيَ نشيدُ النَّجاةِ ، وترْنيمةُ الخلاصِ .

وعالجْتُ خروجِى من الثقْبِ ، حتى صرْتُ خارجَه ، وجلسْتُ أتنسَّمُ

نَسيمَ الحُرِّيةِ ، وأملأُ رئتيْ من الهواء النَّقيِّ المنعِشِ ، وتلفتُّ حولِي أُشبعُ عيْنِي من الفَضاء الواسِع ، وأُمتِّعُها بضوء الشمسِ البهيج ، وقد سكنَتْ روحِي ، وهدأَتْ نفسِي ، واطمأَنّ قلْبِي ، وأيقَنتُ بالحياةِ بعد الموتِ ، أو أنِّى بُعثتُ من جديدٍ .

ثم نظرْتُ إلى ما حولِي لأرى فى أىِّ مكانٍ أنا ؟ وإلى أىِّ بقعَةٍ من الأرضِ صعدْتُ ؟

فوجدْت نفسِي فوقَ جبلٍ عالٍ يفصِلُ بين بحرَيْن ، ومن ورائِه الجزيرةُ والمدينةُ ولا يستطيعُ أحد من أهلِها أن يَصِلَ إليه ، حينئذٍ اطمأنَّ قلبى ، وحمدْتُ اللهَ وشكرتُه على فَضْلِه كثيراً . ولما لَمْ أجِدْ شيئاً يمكِنُ أن آكُلَه عدتُ إلى المغارةِ ، فأخذتُ زادِي الذى كنتُ أدخِرُه للأيَّام العِجَاف ، وخلعْتُ ما علىَّ من الملابِسِ القذرة ، وارتدَيتُ شيئاً مما كانَ نظيفاً فى ملابِس الموْتى . وجمَعْتُ شيئاً كثيراً ممـا كانَ عليهمْ من الحُلِىِّ والجوَاهِرِ واللآلِئْ ، وحزمْتهُ فى الأكْفان ، وصعدتُ من الثقبِ إلى ظَهْر الجبلِ ، وجلسْتُ أترقَّبُ مرورَ سفينةٍ بعرضِ البحرِ لتأخُذَنى معَها .

ومكثْتُ فى هذا الانتظارِ زمناً طويلاً . كان زادِي فيه قد نَفد ، واضْطُرِرْتُ إلى العودَة إلى عادَتى القديمةِ من قَتْلِ الوافدِين على المغارَةِ ، والاستيلاء على زادِهمْ ، ثم أنقل كل ما يَقعُ تحت بَصرِى من لآلئ

وجَواهِرَ وذهبٍ وأضُمه إلى ما جَمعْتُه وأَعددْتُه فوق الجبل استعداداً لساعةِ الرَّحيل .

وأخيراً ، حانَتْ هـذه الساعَةُ ، فلمحْتُ سفينةً فى عرضِ البحرِ ، فنشرتُ شِراعِى الذى أعدَدْتُه لهذه الغايةِ وهو قصبةُ ساقٍ لميّتٍ ، عقدْتُ بطرفِها قطعةَ نسيجٍ كبيرةٍ بيضاءَ من الأكفانِ ، وأخذتُ ألوّح بها يميناً وشمالا لأوجّه نظرَ ركابِ السفينةِ إلىّ . وسرعانَ ما رَأَوْنى لارتفاعِ الجبلِ ، وحوّلُوا سير السفِينةِ ناحيتى .

وكانت لى فرحةٌ ما فرحْتُها طول عُمرى ، وَانْتَشَيْتُ نشوةً ما تذَوقْتُ حلاوتَها فى حَياتى ، وظللْتُ أنظر إلى السفينةِ وهى مُقبلةٌ تتَهادى نَحوِى ، وقد تبدّتْ لعيْنَىّ على صورةٍ جميلةٍ فاتنةٍ جذابةٍ كالعروسِ المجلوّةِ ، فمدَدْتُ يَدِى نحوهَا وإنى لأكادُ ألقِى بنَفسِى فِيها وأنزلَ البحارةُ زورقاً ، ونزلَ بعضُهم فيه ، وصارُوا يجدفُونَ حتى اقْتربُوا من قاعِدَة الجبل ، وصَاحُوا عَلىّ يستَفْهِمُونى :

من أنْتَ ؟ وما سببُ جلوسِكَ فوق هذا الجبلِ الذى ما رأَيْنا قبلَ ذلك عليْه أحداً قط ؟

فصحتُ : أنا رجلٌ تاجِرٌ ، غرقَ المركَبُ الذى كنْتُ عليه ، واستطَعتُ أن أنجوَ بنفْسِى وبحوائجى فوقَ لوحٍ من الخشَبِ حملنِى إلى هذَا الجبل فاعتلَيْتُه بعد جهدٍ ومَشَقّةٍ . فأشارُوا لى بالنُّزولِ إليهِمْ ، فحملْتُ ما جَمعتُه وانحدرْتُ حتى بلغتُ حافَةَ الزورق فساعَدُونى على النزُولِ فيه .

ولما وصلْنا إلى السفينةِ سألنى الرّبّانُ :

كيفَ وصلتَ إلى هــذا الجبلِ يا رجُل ؟ . فإنى على طُول عهْدِى بالبحرِ ، وكثْرةِ طوافِى بهذا المكانِ ، ومرورِى بذلك الجبلِ ما رأيتُ عليه غيرَ الوحُوشِ والطُّيُور .

فأخبرتُه بما أخبرتُ به بحارتَه من قبلُ حينما تلقَّفُونى فى الزوْرَقِ ، ولم أشأْ أن أخبرَه بالحقيقَةِ خوفًا من أن يكُونَ على ظهرِ السفينَةِ أحدٌ من أهلِ هذِه المدينَةِ المشئُومةِ .

وأخرجتُ لصاحبِ المركب شيئًا كثيراً مما مَعِى من جواهِرَ ودُرر .

وقلت له : ياسيّدِى أنت سببُ نجاتى من هذا الجبَلِ ، فتقبّلْ هذا منِّى مقابِلَ صَنِيعكَ معى ، ومعْروفِك لى .

ولـكنه لم يقْبلْ منى شيئًا وقالَ لِى :

نحنُ لا نأخذُ من أحدٍ شَيئًا . وإذا نجيّنا غَرِيقًا من بحرٍ أو من جزِيرَةٍ أطعمناهُ وكسوْناه ووهبْنَا له من لَدُنا هبةً يَستَعِينُ بها على حالِه ، ولا نَنتَظِر من أحدٍ جزاءً ولا شُـكُورا إنما نَبغِى رضاء الله تعالى ، ونلتَمِسُ ثوابَه .

فشكرتُه كثيراً ودَعوت له دُعاء طيبًا .

وسارتْ بنا السفينَةُ من بحرٍ إلى بحرٍ ، وانتَقلتْ بنا من جزيرةٍ إلى جزيرةٍ إلى أنْ وصلْنا إلى البصرةِ ، فأقَمْتُ بها أيامًا قلائِل . ثم انحدَرْتُ إلى بغداد وتوجّهتُ إلى دَارِى ، واجتَمعتُ بأهْلِى وأحبابِى ، ففرِحُوا بى

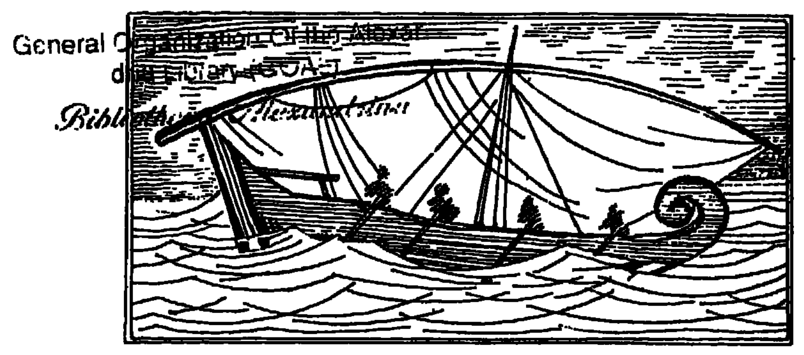
وهنئُونى ، وتصدقتُ على الفُقراء والأيْتامِ بمالٍ كثيرٍ . وعُدْتُ إلى سيرتى الأُولى ، وصرت لا تَسعُنى الدنيا لفَرطِ سعادَتى وسُرورى .

وهذا هُو ما رأيتُه من عَجائِبَ فى سفْرتى الرابعةِ ، وغداً إن شاءَ الله أقصُّ عليكمُ ، ما لاقَيتُه فى سفْرتى الخامِسة من عجَائِبَ وغَرائِبَ .

أمر السندبادُ بإحضارِ العشاء على عادَته ، فأكلُوا وشَبِعوا ، ثم أمر بإعطاء السندباد الحمّال مائةَ مثقالٍ من الذَّهب .

وانصرفَ الجمْعُ وهم متعجِّبُون مما سَمِعُوا أشدَّ العَجبِ .

وفى اليوم التالِى حضر السندبادُ الحمالِ . وبعد أن انعقدتْ حلقةُ الأصحابِ وتناوَلُوا طعامَهم ، ابتدأ السندبادُ البحرىُّ فى الحديثِ فقال :



السَّفرة الخامسة

علمتم يا إخواني ما يدفع بي إلى الرغبة في السفر، ويستفز بجوانحي من التلهف إلى التجارة والترحال. على الرغم مما قاسيته في رحلاتي من مصاعب وأهوال يشيب من هولها الولدان.

فقد كنت إذا طال عليّ الوقت وأنا نائم هادئ مستريح، لا يشغل فكري شاغل ولا يكدرني مكدر، وأكاد لا أعمل عملا إلا الجلوس إلى الإخوان، والاستمتاع بأسباب السرور والطرب، — كنت حينذاك — أجد نفسي وقد شعرت بالملالة والضيق.

واشتد بي الحنين إلى السفر، وممارسة التجارة، والانتقال من بلدة إلى بلدة، ومشاهدة شعوبها، ومخالطة الرجال الكادحين فيها:

وكنت كلما راجعتُ نفسي وحاولت أن أكُفَّها عن السَّفر، وكلما ذكرتُها بما مَرَّ عليَّ من البلايا في كلِّ رحلةٍ تَصدَّتْ لي بأنَّ ما في الغيبِ قدْ قُدِّر، وأن كُلَّ إنسانٍ يرى ما كُتِب، ولا يُنجيه منه حَذَر، ولا يُوقِعهُ في شر لم يقدَّرْ رحلةٌ ولا سَفَر، وما يُواجِهُ التجّارَ والمسافرين من الأخطارِ في رحلاتهم لا يَصِحّ أن يَثْنِيَهم عن عَزمِهم، ولا يَقْعُدَ بهم عن تَرْحالِهم.

وبهذا الشُّعورِ، وذاك التَّفكير، شرعْتُ في إعدادِ نَفْسي للرحْلةِ الخامسةِ، تَدفعُني رغبةٌ مُلِحَّة، ويحدُوني أملٌ كبيرٌ، ولا سيّما أنّي في كل رحلةٍ من رحلاتي السابقة كانت تُظلِمُ الدنيا في وَجْهي، وينقطِعُ بي الأَمَلُ؛ ثم لا تلبَثُ أن تُضِيء، ويتّصِلَ حبـلُ الأملِ؛ فأنجو وأكسَب وأعُود إلى أهلي؛ وقدرْتُ أن عِنايةً خاصةً من الله تَلحظُني، وتجهّزتُ ببضائع ذاتِ قيمةٍ غاليةٍ، وتوجهْتُ بها إلى مدينةِ البَصرة فشاهـدْتُ في مينائها سفينةً كبيرةً، يَبدُو عليها رَوْنَقُ الجِدة والبهاء فأعجبَتْني، ورغِبتُ في شرائِها، وسألتُ بحّارتَها عن صاحبِها، فدلُّوني عليه. ففاوضْتُه في أمرِ بيعِها لي، فقَبِل وبذلك انتقلتْ ملكيّتُها إليَّ، واكْتَرَيْتُ لها رُبّانا، وبحارةً، وأنزلْتُ فيها أحمالِي. وجاءني بعد ذلك جماعةٌ من التُّجارِ وأبدَوْا رغبَتَهم في السفرِ معنا، فقبلْتُ، فأتوا ببضائعهم إلى المركَبِ، بعد أن دَفعُوا إلي أجْرَ حَمْلِها.

وسار بنا المركَبُ على بركةِ الله، وما مِنْ أحد فِينا إلا استَبْشَر خيراً،

وأمَلٍ في الكسْبِ والربْحِ ، وظلِلْنَا نتنَقِل من بلدٍ إلى بلدٍ ، ومن ميناء إلى ميناء ، ومن جزيرةٍ إلى جزيرة نُمارسُ تجارتَنا ، ونطوفُ ما بنا من شوقٍ إلى مَعرفةِ أحوال الشعوب ، ومشاهَدةِ معالمِ البلادِ وعجائبِها ، حتى ألقَى بنا المطَاف في جزيرةٍ بدت لَنا قفراء جَرْداء ، ليسَ فيها شيءٌ ؛ إلا قُبّة بيضَاء لاحتْ لنا من بَعيدٍ .

وغادَر التجارُ والبحارةُ السفينةَ إلى الجزيرةِ لاستِكشافِها والتفرُّج عليها أما أنا فقد تخلَّفتُ في السفينةَ وخليّتُهم ينزلُونَ وحدَهُم .

وبعد قليل رجع أحدُ البحارةِ ، وطلبَ إلى أن أصحَبه فتلكّأتُ بعضَ التّلكُّؤ ، فقال : قم يا سيِّدى لمشاهَدة هذه البَيْضةِ العَجيبةِ التى حَسبناها قبّةً بيضاء فنهضتُ معه ، وقد فطِنْتُ إلى أنّها بيضَة رُخّ كالتِى رأيتُها من قبلُ ، وما كدتُ أقترِبُ من مكانِها حتى رأيتُ الرجالَ يضربُونَها بالأحجَار . فكسَرُوا جزءا كبيراً منْها سالَ منه ماءٌ كَثير . وبدا فَرْخُ الرخّ داخلها . فصحْتُ بهم :

كُفّوا . لا تفْعَلُوا ذلك ، فيأْتِيَ طيرُ الرخّ ويُهلِكنَا جميعا .

فلم يصغُوا لكلامى . بل واصَلُوا عملَهم ، وسحَبُوا الرخّ من داخِل البَيضَةِ وأخذوا يقَطّعونَ من لَحمِهِ ، ويأخُذون منه مقادِيرَ كبيرةً ، وأنا أنظرُ إليهم وقد أوْجسْتُ خيفَةً ممــا سوْفَ يَحدثُ لو أتى صاحِبُ البَيْضة .

وفجأة انتَشَر الظلامُ من فوْقِنا وخيّمَ علَيْنا ، فرفَعْنا رءوسَنَا ننظر

ما حالَ بيننا وبين الشمس، فرأينا أجنحةَ الرخّ مبسوطةً في الجو كالغمامةِ الكبيرةِ، فصحْت بالركّاب: انشدُوا السلامةَ يا ركّاب السفينةِ وأسرعُوا بالصعُود إلى المركَبِ فسخرُوا منّى، ولم يَعبَئُوا بكلامى، ولم يَفهمُوا حقيقةَ المَوْقِف، لأنَّهم لم يَرَوْا قبلَ ذلك رُخًّا إلا أنَّهُم لم يلبثُوا أن أدركوا أن هُناكَ خطراً كبيراً، فأسرعُوا يتسابَقُون في الصعود إلى المركَب يَنشُدون النّجاةَ.

ودوّى في الفَضاء صوتُ الرخّ كالرعْدِ القَاصِف، فانخلعَتْ قلوبُنا وصِحْتُ على الربّانِ والبَحّارةِ: ادفعوا بالمركَبِ إلى عرْضِ البحرِ، قبلما نَهلِكْ.

وأسرعْنا جميعاً نتعاونُ في الابْتِعادِ بالسفينَةِ قبل أنْ يُصيبَنا ضررٌ من هذا الرخّ الهائِجِ الذى كان لا يَنْقطِعُ من دوىّ صراخِه بعد أن أدركَ ما حَلّ ببَيْضتِه.

وما كانَ أشدّ فزعنا حينَ رأيناهُما رخّيْن، قد أقْبلا نحونَا وأخذا يحوّمان حولَ المركَب ويرسلان أصواتاً منكرةً متواصِلَة أصمّتْ آذانَنا وخلعَتْ قلوبَنا.

وبعد أنْ تبعا المركب فترةً، رأيناهُما قد كرّا عائِدَيْن إلى الجزيرةِ فاطمأنّتْ قلوبنا وهدأ رَوعُنا، وحَمِدنا الله على ذلك.

ولكنّنا ما كِدْنا نطمئنّ وتتنفّس الصُّعَداء، حتى أبصرْناهما قد رجَعا إلينا وبَيْنَ رجلَى كلٍّ منهما صخْرةٌ عظيمةٌ، فعاودَنا الفزعُ، وانتابَنا

خوفٌ شديد ، وحامَ أحد الرُّخَّيْن فوق السفينَةِ ثم ألْقَى بصخرتِهِ ، وفى تلك اللحظَةِ حوَّل الرُّبَّان سيرَ السفينةِ فجْأة ، فانحرفت عن موقعِ الصخرةِ قيدَ أنْمُلةٍ فسقطتْ فى الماء بجوار المركبِ . وأحدَثَتْ فراغاً عظيماً كدنا نرى منه قرارَ البحر وارتجَّت السفينَةُ وتمايلَتْ وأوشكَتْ أن تنقَلِب بنا ، ثم ما كِدْنا نتنَبَه ونُفِيق من غَشْيَتِنا حتى كان القَدَرُ فينا قد وَقَع فقد ألقَتْ أنثى الرخّ بصخْرتِها ، فنزلَتْ بمؤخَّرة السفينةِ فكسرَتْها وحطّمتْ دفَّتها تحطيما ، ومالت السفينةُ ثم انقلبَتْ بنا فغرِقَ لساعتِه من غَرِق ، وطوَّحتْ الأمواجُ بمنْ طوحَتْ .

وجاهدْتُ أنا حتى تشبَّثتُ بلَوحٍ من ألواحِ المركَب المتناثِرَة ، واعتلَيْتُه وكان المركَبُ قد غَرِق بالقرب من جزيرةٍ أخرى فى وسط البحر ، لم ألبث طويلًا حتى لاحَتْ لى أشجارُها فجاهدت فى التجديف بساقى لأساعِدَ اللوح على الاتجاه إلى ناحِيتها ، فبلغْتُها بعد أن نَالَ منى التعبُ مبلغاً عظيما ، صعدت إلى الشاطىء ، واستلقَيْتُ عليه وقتاً من الزَّمان ، فلما شعرتُ ببَرْد الراحَةِ يدب فى أعضائى ، نهضْتُ وتمشَّيْتُ فى هذه الجزيرَة ، فرأيتها كأنها روضَةٌ من رياضِ الجنة : أشجارُها يانِعةٌ مونِقةٌ ، وأنهارُها دافقةٌ ، وطيورُها مغردَةٌ . ورأيت فيها كثيراً من الفواكه ، وأنواعاً مختلفةً من الأزهارِ ، فأكَلْتُ من الفواكه حتى شَبِعتُ وشَرِبْت من الأنهارِ حتى ارْتَويتُ ، وحمدت الله على ذلك وأثنَيْتُ عليه .

وأمسى المساء ، فرقدْتُ فوق العُشب ، ولكن النَّومَ لم يَهوَ أجفانى

وظللتُ مُستيقظاً قلقاً ، لا يقر لى قرارٌ . حتى انبلج الفجرُ ، رغم أنى لم أسمعْ ولم أرَ بهذه الجزيرةِ ما يُريب وسرت فى الجزيرةِ أستكشفُ مأوايَ الجديد ، الذى رمتْنى المقاديرُ إليه لعلّى أجد لى منفذاً للخلاص . وتوغّلتُ فى السير وسطَ أشجارٍ وأحراجٍ متكاثفةٍ انفرجتْ بى فجأةً عن مكانٍ متّسِعٍ به عينُ ماءٍ جاريةٍ أُقيمتْ عليها ساقيةٌ . فتعجّبتُ لذلك ، ولكن ، ما كان أشدّ ذلك العجب حين أبصرْتُ شيخاً جالساً على حافّةِ الساقيةِ من الناحيةِ الأخرى . وقد ائتزرَ بإزارٍ من ورقِ الأشجار ، فطافَ بذهنى أن هذا الشيخَ لا بُدّ أنه كان غريقاً مثلى ، تحطمتْ به سفينتُه ، واستطاعَ النجاةَ ، والالتجاء إلى هذهِ الجزيرة ، فدنَوْتُ منه وسلّمتُ ، فردّ على السّلامَ بالإشارةِ ولم يتكلّمْ . فقلتُ له : يا شيخُ ما السّببُ فى جلوسِك فى هذا المكان ؟ .

فحرّكَ رأسَه متأسّفاً ، وأشار لِي بيدِه ، أن أحمِلَه وأنقله إلى النّاحيةِ الأخرى من الساقيةِ فرثيتُ لهذا الشّيخ العاجزِ المريضِ ، وأشفقْتُ عليه لضَعفه ووَحْدَته ، وتقدّمتُ إليه وحملتُه على كتِفى بهمةٍ ونشاطٍ ، رغم أنّى كنتُ مُتعباً مَكْدُوداً ، منهوكَ القُوى ، وذهبتْ به إلى الناحية الأخرى من الساقيةِ حيث أشارَ . ورفَقْت به وقلتُ له : انزل على راحَتِك هادِئاً .

ولكنه لمْ ينزِلْ ، بل لَفّ ساقَيْه حولَ رقبَتِي ، فنظرْتُ إليهما فوجدتُهما كجلدِ الجامُوس خشونةً وسَواداً ، ففزِعْتُ منه ، وأردْتُ أن



ألقيه من فوقِ كَتِفِي . ولـكنهُ ازدادَ ضغطاً بساقيْه حول رَقَبَتِي لحاولتُ إزاحتَه عَنى ، والتملّصَ منه فزادَ ضغطهُ حتى اســودَّتْ أمامى الدُّنيا ، وأصبحْتُ غيرَ مطيقٍ ضغْطه، ولا مُحتمِل ثقله ، فدمعت عيْناىَ ، وانحبسَ الدمُ فى وَجْهى ، وكاد ينْقَطِع نَفَسى ، وجَفَّ ريقى ، ثم لم أَلبَثْ أن غِبْتُ عن وُجودى ، وسقطت به مغْشِيًا علىّ ، فرفَع ساقه عن رقَبَتى بعد أنْ كِدْتُ أفقِدُ الحياة . وأخذ يَضْربُنى على ظهْرى وصَدْرى ضربًا موجعًا مُؤلمًا جعلنى أنْتَبه من غَشْيَتى فنهضتُ قائمًا وهو لا يزال على كَتِفِى . فأشار لى أن أدخُل به بين الأشجار حيثُ الفواكه الطيّبة، والثمارُ الشهيَّة .

فدخَلْتُ به وسِرْتُ بينها ، فصارَ يَنْتَقِى منها ويأْكل . وكلما أعجبَه نوعٌ أشار إليه ، فانتقَلْتُ به نحوَه ، فيأْكلُ منه ما طابَ له الأكل ؛ وظللْتُ هكذا أحملُه بين الأشجار ، وأتنَقِلُ به هنا وهناك حتى نال منى التعبُ مَبْلَغًا عظيما ، وإذا تَوانَيْتُ أو تمهّلتُ أو خالَفتُ يَضربُنى برجلَيه ضربًا أشدَّ من ضَرْب السِّياطِ .

ومرّتْ بى أيّامٌ وأنا على هذه الحالِ الشّائنة ، وهذا الوضْع المُزْرى . وذلك الطاغُوتُ جاثمٌ على كاهِلى ، لا يَفُكُّ إسَارى ، ولا يَحُل وثاق ، ولا يُغادِر مجلسَه من كَتِفِى ليلا ولا نهارا ، وإذا أراد أنْ ينامَ لَفَّ رجليْه حول عُنُقى ، وشدَّهما شدًّا قويًا لا أستطيعُ التخلُّصَ منهما فكأَنهما كَلاَّبتانِ من حَديد ، وينامُ قليلا ثم يَصْحُو ، فيعاوِدُ ضَرْبى ، فأنهض مُسرِعًا وأتجهُ به إلى حَيثُ يَشاء ، ولا أستطيعُ مخالَفتَه مما أقاسيه من بأْسِه وقوتِه ، فهو

فظٌّ غليظُ القلبِ ، فيه جَسارةٌ وشَراسةٌ ، وكنتُ أطيعُه كذلك لعله يَعطِفُ علىَّ ، ويتركُ كتفى فى أىّ لحظة من اللّحظات ، فأتمكّن من الفِرار منه ؛ ولكنّه كان لا يَفعلُ ، حتى أنه كان إذا اضطُرّ إلى التخلُّصِ من فَضلاتِ طعامِه تخلّصَ منها وهو ملازِمٌ كتِفِى ؛ ولا يتركنى أنامُ غير سويعات قليلة ، وهو مُلازمٌ مكانَه من كتِفِى لا يَبرَحُه .

وصرت أسيراً ذليلا . نادِماً على ما فعلتُه من خير بهذا الشيخ ، وتألّمْتُ إذ صنَعْتُ معروفاً فى غيرِ أَهْلِه ، وزادَنى أَلَماً يأسِى من التخلُّص منه ، وطلبْتُ الموتَ وتمنَيْتُه على الله فى كلّ وَقْت .

بقِيتُ على هــذهِ الحالة السيئةِ أياماً ، لا يُجْدِى استعطافٌ ولا استِرْحامٌ ، ولا يُفيد عَويلٌ ولا بُكاء .

حتى كنتُ سائراً ذات يومٍ وهو على كتفى فى أحدِ أنحاء الجزيرة ، فوجدتُ يَقطيناً كثيراً قليلُه رطْبٌ وكثيرُه يابِسٌ ، فخطرتْ ببالِى فكرةٌ ، وقلتُ : لعلّى أستعِينُ بها على التخلُّصِ ممـا أنا فيه من شَقاء . فأخذتُ واحدةً كبيرة من اليَقْطين اليابِس ، وأفرغْتُ جَوْفَها ، وذهبتُ إلى كرمَةِ العنب ، فملأتُها عَصيرا ، وسدَدتُ فوهتَها ، ووَضعتُها فى الشّمْسِ ، وتركْتُها أيّاما حتى صارتْ خَمْرا .

وكنتُ كلّ يومٍ ، أذهبُ إليها ، فى مكانِها ، وأُظهِرُ عِنايتى بهـا ، وحِرْصِى عليها ، فأغراهُ هذا الاهتمامُ بهـا مِنّى ، على أن يَسْألَنى عنْها . فأجبتُه : إن هذا عَصِير من العنَبِ ، إذا صُنِع به ما صَنعتُ ، وشربَه المرء ،

أكسبَ جسمَه قوةً ، وأزالَ عنه التعبَ ، وكذبْتُ عليه فى ذلك ، حتى أغريه بشُربِ الخمرِ لتضعُفَ صحتُه ، ويَفقِدَ شعورَهُ ، وحينئذٍ أستطيعُ التخلُّصَ من شرِّه ، فقال : بعد أن يُصبِحَ هذا العَصيرُ صالحاً للشُّرْبِ ، فإنى أُحبُّ أشربَ منه معكَ ، فقلتُ : ولك ذلك .

ولما صار العنبُ خمرًا تناولتُ اليقطينةَ ، ووَضعتُها على فَمِي ، كأنى أعُب منها عبًّا ، ولكنّى لم أشربْ منها شيئاً ، إلا ما عَسَى أن يتسرّبَ إلى حَلْقِي ، وكان قليلا جداً ، فأمرنى أن أعطيَهُ إيّاها ، ففعلتُ ، وجعَلَ يعُبُّ ما فيها بشراهةٍ ونَهَمٍ ، حتى أفرغَها فى جَوْفِهِ ، ثم ناولَنى إيّاها ، وما هى إلّا فترةٌ من زَمَن ، حتى ذهبَ شعورُه ، وفقَدَ إحساسَه ، وانحلّتْ أعصابُه ، فألقيتُه على الأرض جثة قذرَةً ، لا تحِسّ ولا تَعِى وإن كانتْ فيها الحياة .

وتنفستُ الصعَداء طويلا ، وأنا لا أصدِّقُ أنّى قــد نجوْتُ بهذه السُّهولةِ من ذلك الكابُوسِ الخانِقِ الذى لَزِمَنى تلك الأيامِ الطّويلة المَريرة ، فَبَغّضَ إلىّ الحياةَ ، وجعلَنى أكرَهُها كُرْهاً فضلْتُ معهُ الموتَ ولــكنْ لا سَبيلَ إليه .

وخَشيتُ أنه إذا ما أفاقَ من سُكرِه وعادَ إلى وَعْيه يؤذِينى . فجئتُ بصخْرةٍ عَظيمةٍ ، وضربتُه على رأسِه ، فاختلَط لحمُه بدَمِه ، وذهَبتْ روحُه إلى الجحيم .

وَخلَتْ لى الجزيرةُ فسِرْتُ أرتاضُ فيهـا ، وأنا مُطمئِنُّ النَّفْس ،

مُستريحُ الخاطِرِ ، آكلُ ثِمارها . فأشعرُ بلذّتِها ، وأنامُ مِلءَ جَفْنى فلا يُفزِعُنى مُفْزِع .

وداوَمتُ على الذهابِ إلى الشّاطىء ومُراقَبةِ الأُفُق . لَعلّنى ألمحُ سفينةً مارّةً ، تأخُذُنى معها وتحمِلُنى إلى أرضِ الوطَن .

ومكثتُ على ذلك زمَناً طَويلا ، وعَلى ذلك لم أيأسْ من رَحمةِ الله فقدْ عَوّدنى الله أنْ يرحَمَنى .

وأصبَحتُ يوماً فإذا بسفينةٍ قد ألقتْ مراسيها بالقُرب من الجزيرةِ ، ثم نزلَ ركابُها إلى شاطئِها ، وقد تصاعَدتْ أصواتُهم ، وتعالَتْ ضحكاتُهم . وهم ينظُرونَ إلىّ فى غَرابةٍ .

وبدافعٍ لا شُعوريّ وجدت نَفْسِى أهرْوِلُ نحوهُم ، يَغمرُنى فرحٌ عَظيم — ويدفَعُنى حَنينٌ شديدٌ . كطِفلٍ وجدَ أمّهُ بعد طُولِ غِيابٍ . ورآنى القَوْمُ فالتفُّوا جميعاً حَوْلى ، يسألونَنى عَن أمرِى ويستفهِمُون عن حَالِى . وعن سَببِ وجُودِى بالجزيرة .

فأخبرتُهم خَبرِى وما جَرى لى من شيخِ الجزيرَةِ ، فأخذهُم العجبُ الشديدُ وهنئونى بِنجاتى . وقالُوا لى :

إن هذَا الشيخَ . الذى ركِبَ على كَتِفَيْك يُسمى شيخَ البحرِ ، وما مِنْ أحدٍ دخَل تحت قبضَتِه وخَلص مِنه إلّا أنتَ .

ثم أحضرُوا لى طَعاماً فأكلتُ ، وثياباً فلبسْتُ ، وطُفتُ معهم فى الجَزيرَةِ مراراً أريهم أشجارَها ورِياضَها ، وأنا لا آكلُ من السّيْرِ

مَعهم ، ولا أَمَلُّ من كَثرةِ أسئِلَتِهم فقد كنتُ مشتاقاً إلى صُحْبةِ أُناسٍ ، فلمآنَ إلى أحادِيثِهم .

وبعد أنْ طافُوا بالجزيرةِ عادُوا إلى سفِينَتِهم ، وركبُوا وأنا مَعَهُم .

وأقلعَتْ بنا وسارَتْ الأيّامَ والليالى ، إلى أنْ ألقتْ بنا الأقدارُ فى مدينةٍ عاليةِ البناء ، جميعُ بيوتِها مطلةٌ على البحرِ ، وتلك المدينةُ يقال لها مدينةُ القرودِ ؛ لأنه عِنْد ما يأتى الليلُ ، يخرجُ جميعُ سكانِها من الأبوابِ المُطلّةِ على البَحرِ ، ويَبيتُون فى الزّوارقِ والمراكب خوفاً من القرودِ التى تزْحَفُ عليهمْ فى الليل كالجرادِ المُنْتَشرِ من أعالى الجبالِ تَبغِى ثمارَ البَساتين .

فلمّا سمعْتُ خبر هـــذِهِ المدينة ، دفَعنى حُبّ الاستِطْلاعِ ورغبَتى فى رُؤْيةِ كلّ عجيبٍ وغَريبٍ إلى الصُّعودِ إلى هذهِ المدينةِ ، والتفرُّج عليْها ، وكانَ ذلِكَ لسُوء حظِّى ، وسَوادِ طَالِعِى ، فما كِدْتُ أنْتَهى من طَوافى وإشْباعِ فُضُولى ، وأعودُ إلى السفينةِ حتى وجدْتُها قد أقْلَعتْ وابْتَعدَتْ بَعيداً فى عرضِ البحرِ . فصِحْتُ وبكيْتُ ، ولمتُ نَفسِى ، على تَهوُّرِها ، قائلاً : مالِى ولِلقُرودِ ، ولمدينَةِ القُرودِ ، أما شَبِعْتُ مما أصَابنى فِيها ، وأقبلَ علىّ رجلٌ من أهْلِ المدينةِ ، وقالَ لِى :

يا سيّدِى هلْ أنتَ غريبٌ عن هذِهِ الدّيار ؟

فقلت له : نَعمْ ، أنا غَريبٌ ، ومِسْكينٌ ، وكنتُ فى سفينةٍ رسَتْ

بهذه المدينةِ فصعدتُ إليها، أتفرّجُ عليها، ولما عُدتُ إلى السفينةِ وجدتُها قد أقلعَتْ وتركتْني .

فقال لى : لا تَبتئِسْ ، وقُمْ معنا ، وانزلْ الزورَق ، فإنَّكَ إن مكثْتَ هنا لَيلاً أهلكَتْكَ القرُودُ .

فقلت له : سَمعاً وطاعة .

ونهضْتُ معه ، فأنزلَنى فى زَورقٍ فيه جماعةٌ من أقاربه . ودفَعوا بالزّورَقِ حتَّى ابتَعَدُوا بِهِ عن الشاطِئِ زُهاء ميلٍ ، وقضينْا الليلةَ ولما أصبح الصَّباحُ عادُوا بالزّورَقِ إلى المدينةِ ، وذهَبَ كلٌّ منهمْ إلى عَمَله ، يفلَحُ أرضَه ، أو يُروِى زَرْعه ، أو يُقلّمِ شَجرَه ، أو يقْطِف زهرَه ، أو يجنِى ثمرَه .

فإذا أمسى المساء خرجُوا إلى البحر ، وقَضَوْا فيه سوادَ ليْلِهم ، ثم يَعُودون إلى جزيرَتِهم إذا أصْبَح الصَّباحُ .

وهذهِ حيلةٌ ألِفها هؤلاء الناس ، واستراحوا إليها ؛ وبَقِيتُ أنا معَهُم ، أخرجُ كما يخرجُونَ وأعودُ إلى الجزيرة كما يَعودُون .

وكنّا ذاتَ ليلةٍ نَسْمرُ فى الزوْرقِ الذى نَبيتُ فيـــه ، فقال لى أحدُ رِفاقى :

ياسيدى ، أنتَ غريبٌ فى هذه الدّيار ، فهلْ لكَ مِهنةٌ تستطيعُ مزاوَلَتَها هُنا ، فقلتُ :

لا واللهِ ياأخِي ، ليسَ لى مِهنةٌ ، وأنا رجُلٌ تاجرٌ ، كانتْ لى سفينةٌ

محمّلةٌ بالبضائعِ ، فغرِقَتْ في البَحرِ بكلِّ ما فيها، وما نجوتُ إلا بمَعُونةِ اللهِ ، وأحبُّ أنْ أعودَ إلى بِلادِي ، ولكنَّ اللهَ لم يُهيِّئْ لي الأسبابَ بَعْدُ ، وليسَ مَعِي مالٌ أستعينُ به إذا احْتجتُ إليه .

فقال : لا بأسَ عليكَ ، سأدبِّر لكَ أمْراً تَحْصُلُ منه على مَعاشِكَ ، ويَكْفُلُ لك رِزْقَك .

وفي الصباحِ أحضَرَ لِي مِخلاةً . وقال لي :

خُذْ هذه المِخلاه . واملأْها حَصى صَغيرًا ، وسأُرفِقُك بجماعَةٍ من أهل المدينة لتخرج مَعهم وتفْعَل مِثل ما يفعَلون ، لعلَّكَ تكتَسِب شيئاً يُعينُك على مَعاشِك، ثم عَلى سَفرِك إلى بلادِك .

وَصحبَنى إلى خارجِ المدينة ، حيث كان هناكَ جماعةٌ من الرجالِ يَجمَعُون الحجارةَ الصغيرةَ والزلَط فقال لَهم :

هذا رَجلٌ غريبٌ، وليس لَهُ حِرفةٌ يكتَسِبُ منها ، فخذُوه مَعَكم وعلِّموه اللّقط لعلّهُ يعملُ شيئاً يَقتاتُ مِنه . فيكون لكُم عند الله حسنُ الجزاء .

فقالوا : مرْحَباً به .

وساروا وأنا مَعهُمْ بَعْدَ أن ملأْتُ مِخْلاتى حجارةً صغيرةً مِثلَهم ، حتى انتهينا إلى وَادٍ واسعٍ ، تكاثفَتْ فيه أشجارٌ عاليةٌ ، لا يَستطيع أحدٌ أنْ يبلُغَ نَظرُه أعلاها وقد انتشرتْ به قرودٌ كثيرةٌ . وما أبصرَتْنا حتى نفرَتْ إلى أعالى الأشجار ، فأخَذ الرجالُ يرجُمونَها بالحجارة التى جمَعوها

فى الخالى . والقرودُ تجاوبُهم الرجْمَ بثِمار الأشجار تقطعُها وتَرجُمهم بها ، فتأمّلتُ هذه الثمارَ التى تُلقِيها القرودُ ، فإذا هى ثمارُ جوزِ الهِنْد .

فلما رأيتُ هذا العملَ من القومِ ، اخترتُ شجرةً عظيمةً عليها قرودٌ كثيرةٌ ، وأخـذتُ أرجُمُ القرودَ ، وصارت القرودُ تقطعُ الجوزَ . وترميني به ، فأجمعُه كما يَفعلُ القومُ . فلما فرغتْ مِخلاتى من الأحجار كنتُ قد جمعتُ من الجوز قَدْراً كبيرًا .

وعُدْنا جَميعاً إلى المدينةِ ، ومَعِي ما جَمعْتُه من الجوز ، وحملَ القومُ ، كلٌ على قَدرِ طاقتِه .

وذهبتُ إلى صاحبي الذى أرشدنى إلى هذا العملِ ، فأعطيْتُه ما جمعْتُ شاكراً لهُ فضلَه .

فأعطانى مِفتاحَ مَكانٍ فى دَارِه . وقالَ لِى :

انتخِبْ الجوزَ الجيدَ وضعْهُ فى هـذا المكانِ،حتى تجمعَ ما يُعِينُكَ على سَفرِكَ . والباقى بِعهُ وانتفِع بثمنِهِ . فشكرتُه ، وفعلْتُ ما أشارَ علىَّ به .

وزاولْتُ هذه المهنةَ ، وصرْتُ أخرجُ كلَّ يومٍ مع القومِ إلى الخلاء ، فأجمعُ الحصى ، ثم نتوجّهُ إلى الوادِى حيث نعملُ على جَمعِ الجوز وكان القومُ يحبُّوننى ويتواصَوْنَ بِي ، ويدلونَنِي على الأشجارِ الضخْمةِ التى تكثُرُ فيها الأثمارُ والقرودُ .

واجتمعَ عندى شىءٌ كثيرٌ من الجوزِ الطيب ، كما بعتُ شيئاً كثيراً

منه ، انتفعتُ ببعضِ ثمنِهِ ، فاشتريتُ كل ما احتجتُ إليــه ، واشتهتهُ نفسِي ، وادخرتُ الباقي .

وهكذا مرّت الأيامُ ، وأنا أجمعُ جوزَ الهندِ الطّيبِ الذي سيكونُ بضاعَتي إذا ما أقبلتْ سفينةٌ للتجارةِ فيــه ، حتى إذا أقبلت السفينةُ المنشودةُ ، كانت فرحتي بمجيئها لا تُقدّرُ .

وجئتُ إلى صاحبي ، وأعلمتُه رغبتي في السّفرِ على ظهرِ هذه السفينةِ ، فقالَ لي :

كما تَشاء يا صاحِبي .

فودّعتُه وشكرتُه ، ونقلتُ ما جمعتُه وادخرتُه من جوزِ الهندِ إلى السفينةِ ، بعد أنْ رحّبَ رئيسُها بسفري معَهم ، ونقدتُه أجرتَهُ .

ولم يطُلْ رُسُوُّ السفينةِ بالميناء ، فقد أقلعَتْ في نفسِ اليوم بعد ما أخذ التجارُ الوافدُون عليهـا حاجتَهم من جوز الهندِ وغيــرِه ، مقايضينَ ببضائع أُخرَى .

ومرّتْ بنا السفينة على بلادٍ وجزُرٍ كثيرةٍ ، وكلما رستْ في إحْدى الموانى أبيعُ ، وأقايضُ بمـا معِي من جوزِ الهندِ وقد مررْنا على جزيرةٍ استبدلْنا فيها بجَوزِ الهند القرفةَ والفلفُلَ . وذكر لنا جماعةٌ ممن معَنا من التجار أنهم شاهدُوا عناقيدَ الفلفل على أشجارِها ، ولكل عنقودٍ ورقةٌ تظلّهُ إذا أمطرت السماء ، وإذا كفّ المطرُ ابتعدت الورقةُ عنه . ومررْنا على جزيرةٍ اسمُها العسرات ، وبها العود القماري . ثم على جزيرةٍ أخرى وفيها

العودُ الصيني وهو أحسنُ من القماري وأغلى ثمناً . ثم مررْنا على مَغاص اللُّؤلؤ . فأعطيتُ الغوّاصينَ شيئاً مما معي من جوزِ الهندِ وقلتُ لهم :

غوصوا غَوْصَةً من حَظي ونصيبي

فغاصُوا ، وطلعُوا ومعهمْ شيءٌ كثيرٌ من اللؤلؤِ الغالي . وقالوا لي :

واللهِ يا سيدِي إنك لجدُّ سَعيد .

وأعطَوْني ما أخرجُوه .

ثم سرْنا على بركةِ الله شطرَ البصرةِ ، فبلغْناها بعد زَمنٍ قَصيرٍ .

وتوجَّهتُ منها إلى بَغداد وكلّي شوقٌ إلى رؤيةِ أهلي وأصحابي .

ووجدتُهم على خيرِ حالٍ ؛ وفرحُوا بعودتي وهنئوني بالسَّلامةِ .

ولكثرةِ ما رجعتُ به في هذه السفرةِ من أموالٍ ومتاعٍ ، خزنتُ بعضَه في خزائني . وأخرجتُ كثيراً من الأموال فتصدقتُ بها على اليتامَى والفقراء ؛ ووزّعتُ الهدايا على الأحبابِ والأصحاب والأقاربِ .

وأنستني لذةُ الربح وحلاوتُه ، مرارةَ ما قاسيتُ في سبيلِه .

ومكثتُ على هذا الحال زمناً ، ثم دفعني الحنينُ ثانياً إلى الرغْبةِ في السفَرِ والترحالِ .

وغداً إنْ شاء اللهُ أقصُّ عليكم ما لاقيتُه في سفْرتي السادسة .

ومُدت المائدةُ للعَشاء . فأكلَ القومُ حتى اكتفَوْا . وودَّعُوا صاحبَ الدارِ داعينَ له بالخيْرِ . وانصرفَ السندبادُ الحمالُ بعد أن وَهبَ له السندبادُ

البحرى مائةَ مثقالٍ من الذهَبِ كعادَتِه .

وفى اليومِ الثانى اجتمعَ الأصحابُ بمنزلِ السندبادِ البحرى . وبعد أن تناولوا الطعامَ وأخذوا قِسطاً من الراحةِ . ابتدأَ يقصُ عليهم تفاصيل رحلتِهِ السادسَةِ، فقال :



السَّفرة السَّادسة

وبينما أنا يا إخوانى ساكنٌ إلى الراحةِ ، مستمرئٌ طعمَ الهدوء ، بعد عودتى من رحلتى التى حدثتكم عنها — وفدَ علىَّ وفدٌ من التجارِ ، ولا تزالُ على وجوههم غبرةُ السفر ، ووعثاء الطريق ، فهنأتهم بسلامتهم ، وجلستُ أستمعُ لأحاديثهم وقصصِهم ، عما لاقوه فى رحلتهم ، وشاهدوه من بلدانٍ ، ونالوه من ربحٍ جزيلٍ .

وما فرغوا من حديثهم حتى استعرتْ بين جنبىَّ رغبةٌ جامحةٌ إلى معاودةِ السفرِ والتجوالِ ، والسعىِ فى بلادِ الله الواسعةِ ؛ وشجَّعنى أن الله عودَنى النجاةَ من كلِّ محنةٍ ، وتفريجَ الكربِ مهما اشتدَّ . ولم أخذلْ تلكَ الرغبةَ ، فسرعانَ ما استجبْتُ لنفسِى وتهيأتُ للسفرِ ، فأعددتُ تجارتى ، وأوثقتُ أحمالها ، ونقلَها الحمالونَ إلى الميناء . ثم سافرتُ بها من

بغداد إلى البَصرة ، فوجدتُ بميناءها مركباً عظيماً ، وبه نفرٌ من التّجارِ والكبراء قد أوشكَ على الإبحارِ . فأنزلتُ أحمالى فيه ، وأبحرَ بنا على بركةِ الله .

وطابَ لنا السفرُ ، فقد كانَ الجوُّ لَطيفاً ، والريحُ رُخاء ، وراجتْ فى أسواقِ البلادِ التى مررْنا بها بضائعُنا . وأصبْنا منها ربحاً وفيراً . وتملكنا جميعاً الفرح والسرورُ بهذه السفرةِ الموفّقةِ الميمونةِ : فقد قطعنا أيامَها هانئِينَ وادِعينَ ، لم تصبْنا مشقّات ، ولم تنزلْ بنا ضائقاتٌ . فإن الحظَّ كان سَعيداً ، وإن أبوابَ الفرجِ كانت واسعةً ، فنفقَتْ أسواقُنا ، وراجَتْ بضائِعُنا ، وأقبلَ الناسُ عليها ، فشرَوْها كلَّها . وربحْنا ما شئْنا أن نربَح ؛ حتى إذا انتهيْنا من تجارتِنا وفكرْنا فى العودةِ إلى بلادنا ، ذهبْنا إلى مركَبِنا ، ونزلْنا فيه .

وسار بنا المركب الأيامَ والليالى ، يقطع بحراً بعد بحرٍ ، دون أن نرى برّا ، وتلوحَ أمامَنا أرضٌ ، وفى صباحِ يومٍ هببْنا من نومِنا على صراخِ ربَّان السفينةِ وصياحه ، فأسرعْنا إليه ننظرُ خبرَه ، ونتبيَّنُ أمرَه ؛ فوجدناه فى ألمٍ وحزنٍ عظيمَيْن . فالتففْنا جميعاً حولَه نستفهم عما حدثَ ، ونحاولُ أن نهدئَ ثورته التى لم نُدْركْ لها سبباً ؛ وبعد لأيٍ استطعْنا أن نعرف منه الحقيقةَ الرهيبةَ ، إذ قال :

اعلموا — يا جماعة — أنّنا قد ضللْنا الطريقَ . ودخلْنا إلى بحرٍ لا نعرفُ طرقَه ، وإذا لم يُقيِّض الله لنا شيئاً يخلصُنا ويرشدُنا ، هلكْنا لا محالة . فابتهلوا

إلى اللهِ تعالى أن ينجيَنا مما سنَنْدَفعُ إليه من ظُلمـاتِ ذلك البحر الذى دفعتْنا إليه الريح دفعاً .

فتصاعدَت الدعواتُ والابتهالاتُ إلى اللهِ عز وجلَّ أن يكشِفَ هذه الغُمةَ ، ويزيلَ تلك المحنَة ، ويهديَنا إلى سواء السبيل .

ولـكن الله كان قد قدَّرَ ما سيكون ، فلم تمض غير لحظات حتى أبصرْنا جَبلا مرتفعاً شاهِقاً، قد ظهرَ أمامنا فجأةً . واندفعَتْ نحوه سفينتُنا اندِفاعاً شَديداً بقُوةِ الريحِ وقذْفِ الأمْواجِ ، فهلعْنا وجزِعْنا ، وتعالَت أصواتُنا ، واشتد هَرجُنا ومرْجُنا فوقَ ظهر المركب ، وأيقنَّا أننا نندَفِع حتما نحو الهلاكِ .

وأصدرَ الربانُ أمرَهُ بالإسْراع بحلِّ القُلوعِ ، ومحاولةِ تحويل السفينةِ عن الاتجاهِ الخاطىء الذى دفعتْنا الريحُ نحوه ، ووقفِها عن الطريق المهْلك الذى نحن مسوقُون إليه . ولـكنْ ذهبتْ محاولاتُ البحارةِ والرجالِ هباء ودون جدْوى ، فقد ظلّت السفينةُ تندَفِع وتندَفعُ نحو الجبل بقوةٍ مخيفةٍ ، وكأن بالجبل مغناطيساً يجذبُها نحوه . أو كأنه ملاذٌ وحمًى استعاذَت من الطّوافِ فى البحر باللُّجوء إليهِ فلم تفلحْ محاولتُنا وقْفَ السفينةِ ، ولم نستطِعْ أن نخفِّفَ من قوةِ اندفاعِها . وما هى إلا ومضةُ برْقٍ أو طرْفةُ عيْنٍ حتى صمَّ آذانَنا صوتُ ارتطامِ السفينةِ بصخور الجبل ، وبزلزلة ألواحها من تحتنا زلزلةً تفسختْ لها أجزاؤُها فمالت بنا السفينةُ على الأثر وتسرّبَ الماء إليها ، فصرخْنا ، وولْوَلْنا ، وأمسكَ بعضُنا بعضاً ، وقد

أيقنّا أن لا نجاةَ . ثم لم نلبثْ أن سمِعنا رطمةً أخرى، أحالت السفينةَ حطاماً متناثراً ، وخلفتْنا أجساداً مبعثرةً فوق سطحِ المياه ، وتحت أنقاض السفينة بعضُنا حيٌّ يحاولُ أن ينجُوَ ، وبعضُنا ميتٌ يلعبُ به الموجُ . وجاهدَ الأحياءُ في التعلُّقِ بالصخور فمنهم من أفلَح ، ومنهم من أخْفقَ فاجترفَتْهُ الأمْواجُ ، وردتهُ إلى أعماقِ البحْر .

وكنتُ أنا مِن الناجِين الذين سخَّر اللهُ لهم موجةً عاتيةً دفعتْهم إلى سفْحِ الجبلِ دفعةً شديدَة ، ثم انحسرَتْ عنه وَبَقُوام على السَّفح .

ووجدنا سفحَ الجبل متَّسِعا ، تكثُر فيــه الصخورُ ، قد تحطَّمتْ عليها قبلَ سفينتنا عشراتٌ من السفُن رأينا حُطامَها وأحمالَها منتثِرةً هنا وهناكَ .

أبعدنا عنْ مواطِىء الماء قليلا ، ثم جلسْنا نستريحُ مما أصابَنا من الذُّعْرِ والفزعِ جميعاً ؛ وما كدْنا نُفِيقُ حتى بدأْنا نفكّرُ فيما سيصيرُ إليه أمرُنا ؛ ولم يكن بُد من أنْ نَسيرَ لنَرَى ما وَراءَ البصَرِ من السَّفْح .

وكلما سِرْنا نتفَقَّدُ المكان، رأينا ما يبهرُ النظرَ ، ويُذهِلُ العقْلَ ، فقد رأينا الأموالَ واللآلىءَ والحليَّ فى كلِّ مكانٍ ذهبْنا إليه بين الأحجار والصخورِ والحصى . ووجدنا صناديق البضائِع والأقمشةِ التى يَقذِفُها البحرُ على اختلافِ أنواعِها . كما وجدْنا صناديقَ المؤنِ والأطعمةِ ففرحنا بها وهَشَشْنا لها ، وأسرعْنا إليها ، وفتَحناها فوجــدنا بعضَها قد فسدَ

وتعفّنَ ، ونتِنَتْ رائحتُه ، ووجدنا بعضَها الآخر باقياً على حالتــه الجيدَةِ ، لم يفسدْ ولم يتعفّنْ ، فاحتفظْنا به لغذائنا ، ورأينا عيناً يَنْبَع منها ماءٌ عذبٌ ، يجرِى على منحدراتِ الجبلِ ، وتغيبُ بين صخوره .

وفى المجْرَى تلمَعُ الجواهرُ واليواقيتُ المختلفةُ . وشاهدْنا عيناً تسيل بالعنْبرِ الطبيعى يخرجُ من بين الصخُورِ ، ويسيل بتأثيرِ حرارَةِ الشمسِ على امتداد الساحِلِ ، وإذا ما غابَت الشمس تجمدَت مثلَ الشمعِ .

وهذا العنبرُ إذا ما سالَ تعبقُ منه رائحةٌ ذَكيةٌ ، تنتَشِرُ فى أرجاء الوادى وقد عرفتُ فيما بعدُ أن ما سال من هذا العنْبرِ نحو البحر ، تخرجُ حيوانات بحريةٌ فتَبْتلعُ منــه ، وتعودُ إلى البحر ، فيحمى فى بُطونِها فتلفظُه ثانياً ، فيتجمّدُ على سطحِ الماء ، ويتغيّرُ لونُه وأوصافُه وأحوالُه ، وتقذفهُ الأمواجُ إلى سواحلِ البحار فيأخــذهُ السائحونَ والتجارُ ويبيعونَه .

ووجدنَا من العودِ الصينى والقمارى صنوفاً مختلفةً ، وأنواعاً جيدةً وكنا ننظر إلَى ما نجدُه من اللآلئ والجواهرِ واليواقيت نظرةَ احتقارٍ وازدراء ولم نَبسمْ لها كما بسمْنا لصناديق المؤنِ والأطعمةِ لأن هذه هى التى ستمسِكُ رمقَنا ، وتقيمُ أودَنا وتحفظُ حياتَنا .

ولذلك طفْنَا بالسهلِ ندوس بأرجُلنا اللآلِئَ ، التى لم يَبْهرنا لألاؤها ، ونطأ بأقدامِنا الأموالَ التى خرجْنا نبغى جمْعها ، فما جَدْواها علينا فى

هذا المكانِ النائى القَفْر . فإنَّ حَفْنةَ حب أنفعُ لنا ، وقَبضةَ كلإٍ أجدى علينا .

وكان همنا أن نجمعَ كل ما نستَطيعُ أن نجمعهُ من الطعام . فجمعْنا كل ما كانَ منه على الشاطِىء وكل ما تيسَّرَ لنا أن ننْتَشله من مؤنتنا التى ابتلَع الماء أكثرَها وصرنا نقتسِمُ منه كلَّ يوم جزءا صغيراً يعيننا على بقاء رمقِنا وحفظِ حياتنا ، حتى لا نتعرّضَ للموت إذا فرغَ زادُنا سَريعًا ، قبل أن يقيِّضَ اللهُ لنا مَخرجا .

ولكنَّ ما خشيناه وقعْنا فيه بأسرع مِمّا قدّرْنا . فقد ظلَّ رفاقِى يذبل عودُهم ، ويجفُّ ماء الحياةِ منهم واحدًا بعدَ آخر ، وكل من ماتَ مِنهم نغسله ونكفِّنُه فى أثوابٍ من التى يقذفُها البحر ، ونقومُ بدفْنِه ، إلى أن غدوْنا نفرًا قِليلا ، ولكن هذا النفرَ لم يَسْلَمْ أيضاً فقد أصابَنا فجأةً مرضٌ أحسَسْنا منه آلاماً مبرحةً فى بطونِنا فلم ينجُ منه أحدٌ غيرى .

أما رِفاقى فقد ماتوا جميعاً ، وسَقطُوا واحِداً بعد واحد كما يسقُطُ ورقُ الشجرِ الذابلِ فى فصلِ الخريف . فقمت بتغسيلهم ودفْنِهم ، وأنا أبكيهمْ وأرثيهم — وإن كنتُ أتمنّى مصيرَهُم .

فقد استراحُوا ودُفِنوا ، أما أنا فسأُقاسِى العذابَ وحْدى وقد تصير جثّتِى بعد ذلك طعاماً للطيورِ والجوارِح .

وفكرتُ فى أن أجهزَ لنفسى قبراً ، أرقُد فيه إذا ما شعرتُ بضعفِى ،

وقُرب أجلي فإذا ما مِتُّ ، سفت الرياحُ الرمالَ عليَّ فغطّتني ، فأصير مَدْفوناً مثل رِفاقِي .

ونفذتُ تلكَ الفكرةَ ، وحفرتُ الحفرةَ التي سأتخذُها قبراً ، ومكثتُ بعد ذلكَ أياماً ، أنتظِرُ حلولَ الموْتِ ، وانتهاء الأجلِ .

وَهَوَّمَتْ برأسِي الأفكارُ ، وسبَحتْ أمامِي التَّخيُّلات .

أين مِنِّي الآنَ بلادِي وأوطَانِي . ؟ .

أين مِنِّي أهْلِي وأحبَابِي . ؟ .

حقّاً ؛ ما أتعسَنِي ! وما أحمقَنِي ! وما أشْقانِي !

تركتُ بلادي جَرياً وراء التجارةِ والأموالِ ، فكانَ جَريِي وراء سرابٍ ، وهذه هي الأموالُ مكدسةٌ وهذه هي الجواهرُ تلالٌ فوقَ تلال ، لا تعود عليَّ بفائدةٍ ولا تنفعُني شيئاً .

إن كِسرةَ خُبزٍ ، وجرعةَ ماء . أجدى عليَّ من كلِّ ما أراهُ من المال الذي يفتَتِنُ الناسُ به ، ويتسابَقُون في اقتنائِه أو يَعملُون على ادِّخارِه ما قِيمةُ هذا الَّذِي يتحارَبُون من أجلِه ، ويتعادَوْن في حُبِّه .

أتمنَّى أن لو كنتُ الآن في بلادِي حافياً عارياً جائِعاً ، أستجدِي لقمةَ الخبزِ ، وجرْعةَ الماء .

وندِمتُ على تركِي لوطني بعد ما قاسيْتُه مراراً من أسفارِي ، وأنا الذي كدَّسَ من الأموالِ ، وأسبابِ العيش ، ووسائِلِ الرَّفاهيةِ ، ما لا أستطيعُ أن أفنيه بقيةَ حياتي ، مهما بذَّرتُ ومهما أسرفْتُ .

وهكذا عضَضْتُ بنانَ الندمِ حيث لا يَنفعُ الندم ، واستغرقنى التفكيرُ حيث لا يُجدِى التفكير .

رفعْتُ كفى إلى السّماء ، وتضرعْتُ إلى الله ، وقلت : يا إلهى . لقد عودتنى الرحمةَ ، حين ظننْتُ أن لا رَحمة ، وأرشدتَنى إلى الخلاصِ فى الأوْقات التى أيقنْتُ أن فيها الهلاكَ ، فلا تتَخلَّ عنّى يا ربى وأعِنّى على ما فيه نجاتِى .

وكنتُ أجلسُ والماء أمامِى ينسابُ فى منحدرَاتِ الجبلِ من فوق الرّوابى ، فتظهر أحياناً مساربُه فوق الصّخورِ وتَغيبُ أحياناً بين الاعشاب أو تَختَفِى بين الأحجار ، فلا تسمَعُ إلا خريراً يختلِطُ بحفيفِ الشجر ، وتغريد الطيْرِ ، فتسمع موسيقى الطبيعةِ فى أجملِ ألحَانِها .

وكان منظرُه جميلاً جدًّا يسحَرُ العيونَ ويأخذُ بمجامعِ القُلوبِ . ولـكنّ هذه المناظرَ كانت قـد فقدَتْ قيمتها عندِى ، فلم يعُدْ يسترعِى ناظِرىَّ جمالٌ ، أو يحركُ حواسِّى موسيقى ولو كانتْ من السماء .

وفجأةً خطر ببالِى خاطرٌ سريعٌ عجيبٌ ، فسألتُ نفسِى :

إلى أينَ يذهبُ ماء هذا النهرِ الجارى الدافقُ بين صخورِ الجبلِ وكُهُوفِهِ ؟ ! لا بدّ أنه يسيلُ فى سفْحِ الجبلِ ولا بد أن له نهايةً ومَصَبًّا .

استصوبتُ هذه الفكرةَ ووجدتُ فيها خيطَ الأملِ فلماذا لا أُلقِى بنفْسِى فى ماء هذا النهرِ فيحملُنى تيارُه إلى حيثُ يسيرُ ، فإما نجاةٌ وحياةٌ وإما موتٌ مريحٌ يكون خيْراً من هذا الانتظارِ المَقيتِ البَغيض ، الذى

لا أستطيعُ أنْ أسمّيه حياةً ولا أستطيع أن أسمّيه موْتًا .

ولم أتوانَ لحظةً ، فنهضْتُ من فورِى ، وجمعتُ مِقْداراً من خشبِ العُود الصينى والقمارى ، وشددتُ بعضَها إلى بعضٍ بحبالٍ من حبالِ المراكِب المحطَّمةِ ثم جئتُ بألواحٍ من خشب هـذه المراكب وسوَّيتُها من فوقِه وكونْتُ من هذا كلِّه قارباً صغيراً .

ولم تقلعْ نفسِى عن غيِّها ، ولم تنسَ حبَّها للجواهِر واللآلِئ والذهبِ والفضةِ ؛ فلما رأيت قارباً منسِياً لم أرضَ أن أخْرِجَ به فارغاً فجمعتُ من كنوزِ الجزيرَة ما يستطيعُ أن يحمِلَه ، وأخذتُ ما كان باقياً من الزادِ ، وأنزلْتُ القارب إلى النهرِ ، ووضعتُ كل هذا فيهِ ، وجعلتُ له خشبَتَيْنِ على جَنْبيهِ كأنهما مِجْدافان .

ركبتُ فى القاربِ وسرْتُ به مع تيارِ هذا النهرِ ، وما زالَ التيارُ يدفعُهُ حتى دخلَ بى تحت الجبلِ فوجْدتُ نفسى فى ظلْمةٍ شديدةٍ ، لم أكد أتبيَّنُ فيها ما أمامِى وأخذ الجبلُ يضيقُ حول القاربِ شيئاً فشيئاً ، حتى لامَسَتْ صُخورُهُ جوانِبَهُ فاستعذْتُ بالله ، وقلتُ لنفسى : ما العملُ إذا ما ضاقَ بى الجبلُ عن ذلك وحشر القاربُ بين صخورِه ، فلا أنا بمستطِيع العودةَ به ، ولا أنا بمستطِيع تسييرَه .

واحلولَكَ الظلامُ من حوْلِى ؛ وأصبحتُ فى ليلٍ دامسٍ ، لا ينيرُه شعاعٌ من ضوءٍ ولا بصيصٌ من أملٍ ؛ وشعرتُ أن سقفاً من فوْقِى قد احْتَكَّ برأسِى فانطرحْتُ على وجْهِى فوقَ القارب ، وقـد تبدَّدَ منى

ما أمّلتُهُ فى النجاةِ ، وما تخيلتُه من احتمالِ الخلاصِ ، وظللْتُ منبطحاً على وَجهى فوقَ القارب وأغمضْتُ عينى ، وأحطْتُ وجهى بذِراعى ، واستَسْلَمتُ وأخذَ التيارُ يدفع القاربَ هنا وهناك . فتارةً يسيرُ وتارة يرتَطِمُ فى صخرةٍ فتعوقُه عن السير أحياناً ، ثم يُؤَرجحُه التيارُ يميناً وشمالاً ، حتى يتخلّص من الصخْرةِ ، ويستأنفَ مسايرةَ التّيارِ .

وبعد وقتٍ لا أدرِى طولَه ، شعرتُ أن النهرَ قد بدأ يتسِعُ من حولِ القاربِ . وأن سقفَ ذلك السردابِ قد بدأ يرتفعُ من فوق . فداعبَنى الأملُ من جديدٍ ، ولكنهُ ما ابث أن تركَنى وعاودَنى يَأسٌ من النجاةِ لم يدعْ للأمل مجالاً ، فقد أحسَسْتُ فجأةً أن الكهفَ قد ضاقَ وضاق وأن السقْفَ قد انخفضَ حتى أوشَك أن يلامِسَ الماء . وأن الظلامَ قد اشتَدّ فتولاّنى قنوط شديدٌ ويأسٌ مريرٌ وأيقنْتُ أنّ فى هذه المغاورِ ، وفى هذا الظلامِ ستكون نهايَتِى ، فمدْتُ إلى قاع القاربِ ، واستلقيْتُ مُستَيْئِساً واستَسْلمتُ لرحْمةِ الأقدار .

ولا أدْرى ما مرّ علىّ وأنا على هذهِ الحالِ ، فقد ظَللت هكذا لا أعرفُ لَيلِى من نهارِى ، يضيقُ بى النهرُ تارةً وينفَرِجُ أخرى وما أدرى أكانَ الذى غشيَنى هو إغماءٌ طويلٌ ، أو أنه قد غلبَنى النومُ فما انتبَهْتُ بعد ذلك وفتحتُ عينى حتى غَشَاها ضوءُ الشمسِ الساطعُ المُنيرُ ، وتبيّنْتُ أنّى فى فضاء فسيحٍ أرضُه خضْراء وسقفُه زرقةُ السماء ، فتولاّنى ذهولٌ خرجتُ منه إلى عجَبٍ واستغْراب ، وسألتُ نفسى أفى

حلم أنا أمْ في يقظةٍ ، أفي حقيقةٍ أنا أم في خَيالٍ .

وأخيراً رفعْتُ رأسي لأتثبَّتَ مما أنا فيه ، فوجدْتُ القاربَ قد شُدَّ إلى وتدٍ بجانبِ صفةِ النهر الذي كان يَنْسابُ رفيعاً ملتوياً كالأفعوان في وسطِ الأرض المعشوشبَةِ الخضِرة النضِرَة ، ورأيتُ جماعةً من الناس قد التفُّوا حول القاربِ وعيونُهم جميعاً شاخِصَةٌ إليَّ ، فدُرتُ بعيني فيهمْ أتأملُهم ، فبَدوا لِي كأنَّهمْ خليطٌ من هنودٍ وحبَشٍ فلما رأوْني هكذا وقد أفقْتُ من غشيَتي واستردَدْت وَعْيي ، تقدمُوا مني وخاطَبوني ولكني لم أفقه من خطابِهم شَيْئاً ، فقد كلّمُوني بلغةٍ لا أفهمُها ، ولم أعِ منها حَرْفاً فرجح لدى أنني حقيقة في خيالٍ لا في حقيقة ، وأنَّ ما أنا فيه ليس إلا أضْغاث أحلامٍ . وهواجِس هجستْ في نفسِي لهولِ ما تكبدْتُه من ضيقٍ وشدَّةٍ .

ولكنى أبصرْتُ رجلاً يشقُّ هذا الجمعَ ، ويُقبلُ على ، فلما وصَل إليَّ مالَ على وقال لى بلسانٍ عربيّ مبينٍ (السلامُ عليكم يا أخانا) .

فردَدْتُ عليه التحيةَ بأحسنَ منها .

ثم ابتدرَني سائلا :

مَنْ تكون ؟ ومن أينَ جئتَ من خلفِ هذا الجبلِ ، فما علِمْنا أن هناك طريقاً يُسلَكُ إلينا ؟!

فسرَّيتُ عن نفسِي ، وحَاولتُ النهوضَ ، فأمانَني الرجلُ على ذلك ، حتى أجلَسنِي فقلت :

من تكونُونَ أنتم ؟ ! وأىّ أرضٍ هذه ؟ !

فقال يا أخى نحنُ أصحابُ هذه الأراضى والحقولِ ، وقد جئْنا لنسقى زراعاتنا فوجدْناكَ نائمًا فى القارِب وهو ينسابُ مع تيـــارِ النهر ، فأمسكناهُ ، وربطنـــاه ، وبقِينا ننتظرُكَ حتى استيقظْتَ ، فأخبرنا ما شأنُكَ ؟

درْتُ بعينى فيما حَولى ، فوجدْتُ الجبلَ الشامخَ من خلْفِى ، وماء النهرِ ينحدِرُ من بين صُخورِه وينْسابُ فى مُنْحدَراته ، فعرَفْتُ أنى فى يقظَةٍ ، وأنّى حقا قد نجوْتُ من غياهِبِ الجبَلِ وأنقِذْتُ من الموتِ الذى كان مِنّى قابَ قوسيْنِ أوْ أدنى .

فحمدْتُ الله كثيرًا وشكرْتُ له ما أوْلانِى من رَحْمةٍ ورِعايةٍ ، والتفَتُّ إلى الرجُلِ الذى خاطبَنِى ، وقلْتُ له :

بالله عليكَ يا سيِّدِى ، إئْتِنِى بشىء من الطعامِ أوّلا ، فإنّى جَوْعانُ ، وتَكادُ أحشائِى يأكلُ بعضُها بعضًا ، ثم اسألْنِى بعـــدَ ذلك عمّا تُريد .

فأسرَع الرجلُ ، وأتانى بطعامٍ ، وسـاعدنِى هو وإخوانُه على الخروجِ من القاربِ إلى شاطِىء النهْرِ ، فجلسْتُ على العُشبِ الاخضرِ ، وأكلتُ حتى شَبِعتُ ، وشربتُ حتى ارتَويْتُ ، وهؤلاء الرجالُ من حَوْلى ، يحيُّونَنِى بالإشارةِ حِينا ، وبالنظْرةِ أحْيانا .

ومَا لبثْتُ أن أحسَسْتُ أن نسيمَ الحياةِ بدأ يَسرِى إلىّ خفيفًا

لَطيفا ، وأن بردَ الراحةِ سَرى فى جَسدِى ، فسكَن رُوعى ، واطمأنّتْ نفسى ، وأخبرتُ الناسَ بقصتِي العجيبةِ وصوَّرْتُ لهم ما لاقيْته من أهوال وما تكبَّدْتُه من ضيقِ النهر تحت الجبل وحلوكَةِ ظلامه .

وكان بعضُ الرجال الذين عثروا علىَّ فى النهرِ ، والتفُّوا حولى ، يفهم العربيَّةَ وبعضُهم الآخر لا يَفهمُها ، فخاطَب بعضُهم بعضاً بكلام لم أفْهمه ، ثم قال لى أحد الذين يتكلمون العربية :

لقد استقرَّ رأيُنا على أن نأخذَكَ معنا إلى مدينتِنا ، ونعرض أمركَ على حاكم المدينةِ .

فقلتُ لهم : لكم ما تَرَوْنَ ، فافعلُوا ما شئْتُم .

فاصطحبُونى معَهم ، وتعاوَنوا جميعاً على حَملِ القارب بما فيه من مال وجواهر وذهبنا إلى مدينتهم .

وهذه المدينةُ هى أكبرُ مُدُن جزيرة سرنديبَ .

وجزيرة سرنديب تقع جنوبىَّ الهند ، ويمر بها خطُّ الاستواء : ساعاتُ ليلها اثنتا عَشْرَةَ ساعة ، وساعاتُ نهارِها اثنتا عشرةَ ساعة ؛ فالليل والنهار فيها متساويان دائماً . وطولُ هذه الجزيرةِ ثمانون فرسخاً ، وعَرضُها ثلاثون فرسخاً ؛ وتمتدُّ على جانبيها سِلْسِلة من الجبالِ العاليةِ ، تحصران بينهما وادياً خصباً .

وفى جبال هذه الجزيرة أنواعٌ كثيرة من الأحجار الكريمة ، والمعادن النفيسة .

وتنبت فى سفوح الجبال ، وفى أرض الوادى أشجارٌ كثيرة ، يؤخذ من عيدانها وأوراقها وأزهارها وأثمارها — أنواعٌ من البَهار ، يَنقُلُه التجار معهم إلى بلادنا ، ويتخذون منه سِلعةً رائجةً ، تُدِرُّ عليهم ربحاً كبيراً .

ورأيتُ فى هذه البلاد الأفيالَ الضَّخْمةَ ، التى يَسْتخدمُها أهلُها فى الركوب ، وجَرِّ العجلات ، وحمل الأثقال ؛ وغير ذلك من الأعمالِ التى نستخدم نحن فيها الخيلَ والبغالَ والحمير .

ولحاكم المدينةِ فيلٌ أبيض ، ، إذا أراد ركوبَه ألبسوه الحريرَ الأبيضَ المحلَّى بالخيوطِ الكثيرة المصنوعةِ من الذهبِ والفضة ، وعلَّقوا فى رقبتِه وبين عينَيْه وحول أذنَيْه وعلى نابَيْه قِطَعاً ثمينة من الأحجار الكريمة .

وإذا خرج الملك فى موكِبه سار خلفَه الوزراء والأمراء .

وإذا أهَلَّتْ طَلْعَتُه على فرد من أفراد رعيته خرَّ ساجداً ، تعظيما للملك، وتمجيداً له .

وأدخلنى رفاقى على حاكمِ المدينة وأخبرُوه بقصَّتى ، فرحَّبَ بى وكان يعرفُ العربيةَ ، وبادلَنى التحيةَ ، ثم استفهمَ عن أمرى فشرحْتُ له ما جرَى من البداية إلى النهاية ، فعجبَ لذلك أشدَّ العجبِ ، وهنأنى على سلامَتى ونجاتى .

وبعد أن قضيْتُ فى مجلِسه بعضَ الوقتِ استأذنْتُه وخرجتُ إلى حيثُ القارب وانتقيتُ منه شيئاً من أنفسِ الجواهر ، ثم عُدتُ وقدمتُه



هديةً إليه ، فتقبلَها منى شاكراً ، وأكرمَنى وأنزلَنى من نفسِه منزلةً طيِّبةً ، وأفردَ لى مكاناً فى قَصرِه .

وأقمتُ عندَ الحاكمِ مدةً من الزمانِ ، وخالطْتُ عِلْيةَ القومِ ، والمترددين على القَصرِ من أهلِ المدينة ، والوافِدين عليْها ، وكلُّ من عرفَ أنى غريب ، أو سمعَ بطرفٍ من قصتى — يأتينى ، ويطلبُ منى أن أقصَّ عليه ما رأيتُه وشاهدته فأقصهُ عليْهِ .

وفى ذات يوم كنتُ جالساً فى مجلسِ الحاكمِ فسألنى عن بلادِى وعن أهلِها ، ونظامِ الحُكمِ ، وحالِ الناسِ الاجتماعيّة ، وطرُقِ معايِشِهم ، وصِلتِهمْ بالحاكِمِ ، ومقدار حبِّهم له أو بغضِهم إيّاهُ . وغيرِ ذلك .

فوصفتُ له بغداد وعظمتَها ، وما هى عليه من الفخامةِ والأُبَّهة ، فهى كثيرةُ الدور والقصور ، حاضرةُ الممالك الإسلامية كلِّها ، فيها خليفةٌ يسهَرُ على شئونِ رعيته ، ويقضِى بينهم بالعدْلِ ، فينتصفُ للمظلومِ من الظالم ، ويَحمى الضعيفَ من القوىّ ، ويحفظُ مال اليتيمِ ، ويعطفُ على المسكينِ ، ويفرجُ كربةَ المكروبِ ، ويُغيثُ البائسَ الملهوفَ .

يحبُّ العِلمَ والعلماء ، ويتذوقُ الأدبَ ويقدِّر الأُدباء ، يُفْسِحُ لهم فى مجلسِه ، وهو يناقشُهم ويناقشُونه ، ويسمع منهم ويسمعُونَ منه .

يجلسُ للوعّاظِ ، وينصحونه ، فيبكيه نصحُهم ، وتسيل دمُوعُه .

له وزراء خبيرونَ بشئُونِ السياسة وتدبيرِ الملك .

وله وُلاةٌ وقضاةٌ مُنصِفُون عادِلون .

والشعبُ فى يسرٍ ورخاء . ليس فيه الفقيرُ المعدمُ ، وليس فيه الغنىُّ الواسعُ الثراء ؛ لا يهمُّهم جمعُ المالِ وكنزُه ، ويكفيهم أن يعيشُوا هانئِين راضينَ مطمئِنينَ على أنفسِهم وعلى دِينِهم . .

فليسَ عجيباً ، إذَن ، أن يتعلَّق الشعبُ به ، وأن تلتفَّ القلوبُ حولَه ، وأن يحبّهُ الناسُ ، ويُنزلوهُ منْهم منزلةَ الوالد العطوفِ الشفيق ، وأن تَنطلِقَ ألسنةُ الشعراء بمدحه ، وألسنةُ رجال الدين بالدُّعاء له .

وما زلتُ أحدِّثُ الحاكمَ ، وأطيلُ فى الحديثِ ، وشجّعني على ذلك أنهُ كان يُصغِى إلىَّ إصغاء شديداً ، ويسمعُ وكأنه يَسمعُ حديثاً عجباً ، وما كدت أنتهِى من ذلك الحديث الطّويلِ ، حتى بَدا عليه الارتياحُ لِما وصفْتُ من سياسةِ الحاكم ، وحُسنِ تدبيرِه ، وجميل صلَتِه برجالِ دَوْلته ، وبالعامة والخاصةِ من رعيتِهِ ، فقال :

والله إنّ حاكمكم يسيرُ وفق منهجٍ عقليٍّ حكيمٍ ، وتدبيرٍ قويمٍ ، وقد عَزمتُ على إعدادِ هديةٍ له ، تعبِّرُ عن تقديرِى لمكانتِه ، وإعجابى بسياستِه تحملُها إليه معكَ عند ما يتَيَسّرُ لك السّفَر .

فقلتُ : سمعاً وطاعة يا مولانا ، سأحمِلُها إليه بإذْنِ الله ، وأخبرُه أنكَ محبٌّ له ، معجَبٌ به .

ومرت الأيامُ بعد ذلك تِباعاً ، إلى أن بلغَنِي يوماً أن جماعةً من أهل المدينةِ قد جهزُوا مركباً للسّفرِ ، وأعدُّوه إعداداً حسناً ، وأنهم ينوون التجوُّلَ به حتى نواحِي البصرة ، فأسرعْتُ من فورِى إلى الملِك ، وأعلمته

بأمر هذا المركَب ، وبسطتُ له رغبتي في السفر معهم . فقال لي :

لكَ ما تشاء ؛ إنْ أقمتَ معنا ، أقمتَ أهلاً ، ونزلت سهلاً ؛ وإن أردتَ السفر فالأمنُ من رِفاقك ، واليمن في رِكابك ، والسلامةُ تظلُّكَ والعافيةُ في جسمِك .

فقلت له : يا مولانا لقد غمرتَني بمعروفِك ، وأسرتني بإحسانِك ، وما كنتُ لأجد خيراً منكم بَديلا ، ولكني اشتقتُ لأوطاني وبلادِي ، وتاقَتْ نفسي لرؤيةِ أهلي وأصحابي ؛ ولولا أنَّ من الوفاء أن يحن الغريبُ إلى وطَنه ، ويتشوّقَ إلى أصحابه وأهلِه — لآثرتُ البقاء في رِحابِكم ، والمقامَ في ظِلِّكم .

فقال : تلك صفة طيبةٌ ، ما اتصفَ بها أهلُ وطنٍ إلّا عزُّوا ، وحبُّ الوطن إيمانٌ في القلبِ ، والإنسان الذي يستحقُّ أن يعيش هو الذي يحملُ وطنَه أغلَى عنده من كل شيء حتى نَفْسِه .

ثم أحضَر أصحابَ المركب ، والتجار المسافرين ، وأوصاهم بي خيرا ، ودفَع لهم عني أجرة المركب ، ثم وهَب لِي هبةً سنيّةً ، وأرسلَ معي هديةً عظيمة إلى حاكِم بغداد كما وعَدَ من قَبلُ .

وودَّعتُ الملك ، وجميعَ أصحابي الذين تعرفْتُ بهم هناك ، وركبت المركَب ، وسرنا على بركةِ الله مبتهلين إليه أن يبلِّغنا مرامَنا ، ونصلَ إلى ما نَبغي سالمين .

وكان ربّانُ المركب شجاعاً ماهِراً ، عالماً بشئون البحر ، عارِفاً

بخوافيه ، فدار بنا من بحرٍ إلى بحر ، وانتقلَ بنا من جزيرةٍ إلى جزيرة . حتى وصلْنا بعونه تعالى إلى البَصرةِ ، فودّعتُ أهل المركَب ، وشكرتُهم على مُروءتِهم وحُسنِ معاملتِهم إيّاى ؛ ونزلتُ إلى الميناء ومعى أحمالى . وأقمتُ بالبصرة بعضَ الوقت ، ثم ذهبْتُ إلى بغداد ، وتوجّهتُ إلى قصرِ الخليفةِ ، وقدّمتُ له هديّة حاكِم المدينةِ التى كنتُ فيها ؛ وقصصْتُ عليه قصتى معه مجملةً من غير تفْصيل .

وذهبتُ إلى منزلى ، فتلقّانى أهلى وأحبابى بما لا مَزيد عليه من الغبطةِ والسُّرور ، وفرِحُوا بعَودتى فرحاً أنسانى كل ما مَرَّ علىّ من شَدائد . وخزنْتُ أموالى وأمتعتى بعد أن أخرجْتُ منها جزءًا كبيرا ، خصصْتُه للأرامِل والأيتامِ والمساكين ، وأقمتُ الولائِم ، ونحرتُ الذبائحَ للفقراء والمحتاجين .

وبعد أيامٍ أرسلَ إلىّ الخليفةُ رسولا يستدْعِينى . فذهبت من فَورِى إليه ، فسألَنى عن سبب هذه الهديةِ العظيمة التى أحضرتُها له من حاكِم تلك البلاد التى كُنْتُ فيها ، وعن الطّريقِ إلى تلك البلاد ، وعن تفصيل ما كان بيْنى وبينَه ، وعن سبب نُزولى هُناك .

فقلت له : واللهِ ، يا أميرَ المؤمنين ، لا أعرفُ للمدينة التى كنْتُ فيها طريقا . وقصَصْت عليه قصةَ غرقِ المركب بجوارِ الجبل ، وكيفية وصولى إلى تلك المدينة التى أرسلَ إليه حاكمها هذه الهديّةَ عندما أخبرتُه بأحوالِ بلادنا ، وأسبابِ رقيِّها ، بفضلِ حكمةِ خليفتِنا ،

وعدلِهِ ، وحُسن تدبيرِه ، وإخلاصِ وزرائِه وولاتِه وقُوّادِه وقُضاته له ، وحبّهم إيّاه ، وجميل تعاوُنِهم معه .

فسُرّ الخليفةُ منى ، وأثنَى علىّ ، وأكرمَنِى ؛ وأمر المؤرّخين بتدْوِين قصّتِى وحفظِها فى خزانتِه ، ليطّلِع عليها كلُّ من رغبَ فى ذلك من أهْل زمانِه ، وممن يجيئُون بَعده .

وأقمتُ فى بَغداد رَدَحاً من الزّمن ، عُدت فيه إلى سيرَتِى الأُولى من الركُون إلى الرّاحةِ ، والتّمتعِ بكلّ أسباب السرور ، فى حُدود ما أحَلّ الله لنا .

وغداً إن شاء الله أحدثكُم كيفَ كانت سفرَتِى السابعة ، وما رأيتُه فيها من العجائب والغرائب .

وأمر السندبادُ البحرى للسندبادِ الحمال بمائةِ مثقال من الذّهبِ ، فأخذَها وانصرفَ ، بعد أن تناولَ عشاءه مع السندباد البحرى وأصحابِه .

وفى الغد بكّر السندبادُ الحمال بالحضورِ إلى دار السندبادِ البحرى ، ولما اكتمَلَ عقدُ الأصحاب ، وتناوَلُوا غذاءهم — التَفُّوا حول السندبادِ الرحّالَة ، الذى ابتدأهُمْ فقال :



السَّفرة السّابعَة

انتظَمَ عقدُ الاجتماعِ في هذا اليومِ على عادَةِ الإخوانِ ، وتحدثَ السندبادُ البحرى فقال : يا إخوانى ، كلّما سَكَنْتُ إلى الراحَةِ والهدوء ، واطمأننْتُ إلى حياةٍ وادعةٍ ، وعيشَةٍ راضيةٍ — تاقَتْ نفسِى ثانياً إلى العَمَلِ ، واشتاقَتْ إلى التّجوالِ ، وامّحَى من ذاكرتى ما كابدْتُه من مَشَاق ، ولاقيتُه من متاعِبَ وأهوالٍ . وكلما حاولَ أقاربى وأصدقائى أن ينصحُونى بالإخلادِ إلى الراحةِ . والركُونِ إلى الهدوء والسكينَةِ فى ظلِّ ذلك النّعيمِ الواسعِ العَريضِ ، وقضاء ما تبقّى لى من عُمرى فى وَطنِي ، متوفراً على تربيةِ أولادِى ، ورعايةِ شئُون من تلزَمني رعايةُ شئُونهم من أهلِي — كلما حاولُوا ذلك ، وتوسّلوا إلىّ بمختلفِ الوَسائلِ — نفرتُ

منهم ، وصَمَمْتُ أذنى عن الاستماعِ لهم ، وأعرضْتُ عنهم إعراضاً شديداً .
وصَحَّ عزمى على الخروجِ إلى الرحلة السابعةِ ، فهيأتُ لها ما هيأتُ من تجارةٍ وأسبابٍ ، ثم حملتُها إلى البَصرة ، وهناكَ وجدتُ مركَباً على أهبةِ السفرِ ، وفيه جماعةٌ من كبارِ التّجارِ ، فنزلت معَهم ، واستأنَسْتُ بهم .
وفى اليوم نفسِه أبحرَ بنا المركبُ ، وكلنا فَرِحُون مستبْشِرون ، موقِنونَ أننا سنَجنِى رِبحاً كثيراً ، ومؤمِنُون أننا سنعودُ إلى بلادِنا سالمِين غانِمِينَ .

وصَفا لنا الجوُّ ، وطابتْ لنا الرّيحُ فسارتْ رخاء ، وتيسرَتْ لنا السُّبُلُ فخُضْنا البحارَ ، وطفْنا بمياهِ الأقاليمِ نَبيعُ ونشْتَرِى ، ونتعوضُ ، فى كلِّ ما نَمرُّ عليهِ من المدُنِ والموانى ، وقد أصبْنا رِبحاً وفيرًا . وكلما زادَ ربحُنا ، أمعنَّا فى التوغُّلِ فى البحارِ ، وقذفْنا بأنفسِنا فى بحارٍ لم نَخُضْها من قبلُ ، ووقفْنا على بلادٍ ليسَ لنا بها عَهْدٌ ؛ فأقبلَ علينا أهلُها ، يأخذونَ منا وتأخُذُ منهم .

وما زلْنا نطوف ونطوف ، حتى جاوزنا بحرَ الصين .

وبينما نحنُ التجارَ والركابَ جالِسون على ظهرِ المركَبِ ذاتَ يومٍ نتحدّثُ ونَسمرُ ، ويقُصُّ كلٌّ منا ما عندَهُ من القصَصِ ، ويحكى ما لديْهِ من نَوادِرٍ ومُلحٍ ، ويسرُدُ ما لقِيهُ من حوادِثَ ، وما لاقاه من أحداثٍ — إذْ بريحٍ صَرْصرٍ عاتيةٍ ، عصفَتْ فجأةً ، فاعتكرَ الجوُّ ، واغبرَّ الأفُقُ وثار البحرُ ، وعلَت الأمواجُ كالجبالِ ، وصار المركَبُ بينَها ككُرةٍ صَغيرةٍ ، تقذِفُها موجةٌ لتدفعَها أخرى .

ثم لم تلبثْ أبوابُ السماء أن انفتحتْ ، وانصبّت الأمطارُ انصباباً هائلاً أخذَ يشتَدُّ ويشتدُّ ، فأحسَسْنا أن الدنيا قد قامتْ قيامَتُها : فانشقّت السماء ، وفُجِّرت البحارُ ، ففاض الماء ، وعصفَ الهواء ، وقرصَنا البردُ ، وغَضِبت الطبيعةُ ، فلا تسمعُ إلا زَئيراً وضَجيجاً ، ولا تَرى إلا هَولاً من ورائِه هولٌ ، فكاد الذهُول أن يصيبَنا ، وشغلنا جميعاً عن أنفسِنا ، وعما أصابنا ، وأسرعْنا ، مع ما نحنُ عليه من فزعٍ ، إلى بِضاعتِنا فغطيْناها حتى لا يفسِدَها الماء ، وابتهلْنا إلى اللهِ أن يكْشفَ عنا هذه الغُمة ، ويُزيلَ تلك المِحنةَ .

وبدَا أنَّ الربانَ قد التبَس عليه الأمرُ ، وغُمَّ عليه الطريقُ وسط هذه الأنواء الشديدَةِ ؛ فقد رأيناه يخففُ من ملابسِه بسرعةٍ ، ويتشبَّثُ بعمودِ الصارى ، ويعتَليه بسرعةٍ ؛ حتى إذا ما بلَغ أعلاهُ أخذ يتطلَّعُ إلى الأفقِ يمنةً ويسرَةً ، ويحاولُ أن يستكشِفَ الطريقَ ، وتطلعت عيونُنا جميعاً إليهِ ، وتعلقَتْ أنظارُنا به ، ترقب ما يُخبِرُ به ، وما سيملِيه من أوامر وإرشادات تنقِذُنا ، وتأخذُ بيدِنا ممّا نحنُ فيه .

ولـكن خابَ أملُنا ، وضاعَ رجاؤنا ، فقد رأينا الرئيسَ وقد أعاد نظرَه إلينا ، وعيناه تشِعّان ألماً وحيْرَةً ، ثم جاءنا صوته متَقَطعاً حزيناً ، يقولُ :

يا ركابَ السفينة ، اطلبُوا من الله تعالى النجاةَ مما وقَعْنا فيه ، فقَدْ غلبتْنا الرياحُ على أمرنا ، وساقَت السفينةَ فى غير طريقِ النجاةِ ؛ ونحن

الآن فى مكانٍ مجهولٍ ، لم يطرقه من قبلنا بحارٌ ، ويظهر أننا وصلنا الآن إلى آخر بحارِ الدنيا ، وهو البحرُ الذى إذا وصَلَ إليهِ أحدٌ لا يخرجُ منه ، ولا تُكتَبُ له النجاةُ ؛ فارثوا أنفسَكُم ، وليودعْ بعضُكم بعضاً فإن الهلاكَ واقعٌ لا مَحالة ؛ وارْضَوْا لأنفسِكم بما قَدَّر اللهُ لكم .

وهبطَ الربانُ من فوقِ الصارى عابسَ الوجهِ ، أصفرَ اللونِ ، كئيباً حَزيناً مهموماً ، وأسرعَ إلى صُندوقِ أمتِعتِه ، وفتحهُ ، وأخذَ منه كيساً ، أخرج منهُ ترابا مثلَ الرمادِ ، و بلهُ بالماء ؛ وانتظر قليلا، ثم قرّبهُ من أنفِه، وشمَّ رائحتَه ، وتنفَّسَ نفساً عميقاً ؛ ثم أخرجَ من الصندوقِ كتاباً صَغيراً وقرأ فيه ، ثم التفتَ إلينا وكنا جَميعاً ملتفّينَ حولَه ، ننظرُ ما يَفعلُ ، وننتَظرُ ما يأمرُ .

قال بصوتٍ متهدجٍ خائفٍ ، مضطربِ النّبرات :

اعلموا يا رِفاقى ، أن فى هذا الكتابِ أمراً عجيباً يدلُّ على أن كلَّ من وصلَ إلى هذا المكانِ ، لا يَنْجو منه مُطلقاً ، بل يكون مصيرُه الهلاك ، فإن فى هذا المكانِ إقليماً يسمى إقليمَ الملوك ، وفيه قبرُ سيدِنا سليمانَ بن داود ، عليهما السلام ، وفيه حيتانٌ عظيمة الخِلقَة بشعةُ المنظر .

وكل مركبٍ وصل إلى مياهِ هذا الإقليمِ تخرجُ إليه حِيتانٌ عظيمةٌ هائلة ، ما رأى جوابُو البحارِ مثيلًا لها ، فتنقَضُّ عليه وتبتلعُه بما فيه ، ومَنْ فيه ، فلا تُبقِى ولا تَذَرُ .

وما أتمَّ الربانُ كلامه ، الذى أنصتْنا إليه مَدهوشين ذاهِلين ، حتى

أخرجَنا من ذُهولنا تتابعُ لطماتِ الأمواجِ للسفينَةِ ، وارتفاعُها ثم انخفاضُها بسرعةٍ مُخيفةٍ ؛ وأعقبَ ذلك صوتٌ دوّى في الفضاء كالرعْدِ القاصفِ ، أرعبَنا ، وزلزلَ كيانَنا . وما كدْنا نتنبّه حتى أبصرْنا شيئاً أسودَ هائلا ، كالجبلِ المرتفِعِ ، يقبلُ على المركَبِ ؛ فعرفْنا أنه أحدُ هذه الحيتانِ الضخمةِ ، التي كان يحدثُنا عنها الربّانُ منذ لحظَةٍ . فأيقنّا أننا هالِكون لا محالَةَ ؛ وظلِلْنا ننظرُ إليه وقد تعلقَتْ عيوننا به ، ونحن نرتجِفُ فرَقاً ورُعْباً .

ثم ما كان أشد هولِنا ، وأعظمَ فزعِنا — حينما أبصرْنا حوتاً ثانياً ، يفوق الأولَ ضخامةً وعُتُوّا ، قد أقبلَ نحونا يشقُّ الماء شقاً ، فعرفنا ألّا أمل في نجاتِنا ، وبكَيْنا أنفسنا وأخذ يودّعُ بعضُنا بعضا .

وبينما نحنُ كذلك ، أبصرْنا حوتاً ثالثاً كانَ أبشع من سابقَيْه منظراً ، وأشد ضراوةً ؛ فكدنا نذهَلُ عن أنفسِنا ، وغابَتْ عقولُنا .

وما درَيْنا بعد ذلكَ إلا والمركبُ قد ارتفَع وتعالَى بنا فوقَ موجةٍ عاليةٍ كالجبلِ الشامخِ ، سارتْ بنا وقتاً ما ، ثم قذفتْنا بشدة على شِعبٍ عظيمٍ من الصخورِ . فتحطم المركب ، وتبعثرتْ ألواحُه وغرقتْ حمولَتُه ، وتغلبَت الأمواجُ الجامحةُ على مجاهــدةِ الركاب في سبيلِ النجاةِ ، فأغرقتْهم جميعاً .

وتشبثتُ أنا بلوحٍ من الخشَبِ تشبثَ المستَميتِ ، وقبضتُ عليه قبضَةً قويةً ، رغمَ ما نالني وإياهُ من الصدماتِ والقذفاتِ بين أشلاء

السفينة الغارقة ، وعلى أسنة الصخور المشرعة كالرماح :

وأخيراً استطعتُ أن أعتلي اللوحَ بعد أن كادتْ قواى تخورُ ، وتصيبني غشيةٌ من فرط التعب .

وانطرحتُ على اللوح ، وأنا لا أزالُ قابضاً على جوانبه ، بكلتا يدىَّ حتى لا يُفلتَ من يدى لشدةِ ضربِ الأمواجِ التى أخذتْ تتلقفني باللوح واحدةً بعد أخرى .

ووسط هذه المفاجآتِ والمنغصاتِ ، وعلى متْنِ الموتِ ، طاف ذهني ، وسبحَ خيالى ، إلى ماضىَّ القريبِ والبعيدِ .

كنتُ فى وطني ، وبين أهلي وعشيرتى ، مستريحاً مطمئناً مسروراً ، فكيف طاوعتْ نفسى هذه المطبوعةَ على التمرُّدِ والطمع ، على تركِ نعيمى الذى كنتُ أرتعُ فيه ، سعْياً وراء الربح والتِّجارةِ .

أأنا حقًّا فى حاجةٍ إلى مالٍ ، وأنا عندى منه مالا أستطيعُ فناء نصفه أو ثلثه بقيةَ عمرى ؟! وإنما هو جشعُ الإنسانِ ، وعدمُ قناعتِهِ ، مهما أوتى من نعيمِ الله . إن هذا لهو الجزاءُ الوفاقُ ، فكم من مرةٍ وقعتُ فى مثلِ هذه المآزقِ ، وتملكنى الندمُ والجزعُ ، وابتهلتُ إلى اللهِ تائباً تائباً ثم ما أكادُ أتذوَّقُ هدوء الراحةِ ، وأتفيأ ظلالَ النعيمِ — حتى أنسى ما قاسيْتُ من شدائدَ ، ولقيتُ من أهوالٍ .

وهكذا صرتُ ألومُ نفسى وأقرّعُها ؛ ولكنَّ الندمَ الآن لا يَدْفع عنِّى خطراً .

وقضيتُ ليلةً مُرة بين الأمواج الصاخبةِ ، ذقتُ فيها من العذابِ ألوانًا وأشكالا . وفى اليومِ الثانى لاحَتْ أمامى أرضٌ خضراء ، وكان اللوحُ الذى أنا عليه ينجَذِبُ بسرعةٍ عظيمةٍ نحوَها، تدفعُه الأمواجُ الشديدةُ.

وما كدْتُ أقتربُ من الشاطىء حتى جاءتْ موجةٌ شديدةٌ قويةٌ حملتنى فى غير هوادةٍ ، نحو الشاطىء ، ثم أخذ الماء ينحسرُ عن المكانِ الذى انتهيْتُ إليه ، وكاد يحمِلُنى معه إلى الدَّاخل — فألقيْتُ نفسى من فوقِ اللوح ، وتشبثْتُ بالطينِ ، وقاومتُ جَزْرَ الماء حتى انحسرَ عن المكانِ ، وبقيتُ أنا على الأرضِ

زحفتُ قليلا نحو الأرضِ ، ثم استلْقيتُ عليها مُتهالِكاً لا حَراكَ بى. وقضيتُ على هذه الحالِ وقتاً ليس بالقَصيرِ ، حتى استردَدْتُ بعض قُوَّتى ، وعادَ إلىَّ بعض نَشاطى ، فتحاملْتُ على نفسِى ، ووَقفْتُ على قدمِى، وسرتُ أسعَى فى الجزيرةِ أبحثُ عن شىء آكُله ، وأقتاتُ منه . فقد نالَ منى الجوعُ منالا عظيما ، وصاحَتْ عصافيرُ بطنى .

لم أمشِ غيرَ بعيدٍ حتى رأيتُ الجزيرةَ عامرةً بالأشجارِ ،زَاخرةً بالثمارِ ، فيها الماء يجرى جداولَ وأنهارًا ، فأكلْتُ حتى امتلأْتُ ، وشربتُ حتى رويت ، فشعرْتُ بانتعاشٍ وقوةٍ ، وبدبيبِ الحياةِ يعودُ إلىَّ . فمشيتُ فى الجزيرةِ أجوسُ خِلالَها . فرأيتُ فى جانبها الآخر نَهْراً عظيما سريعَ الجريان ، فتذكرْتُ النهر الذى اندفعْتُ مع تيارِه فى سفرْتى السابقة ، والفلكَ الذى صنعتُه وركبتُ فيه — وخطرَ

يالى أن أصنعَ لى فُلكاً مثلَه ، أركبُ فيه ، وأتركه ينسابُ مع تيارِ هذا النهر ، لعلَّهُ يحملُنى إلى مكانٍ تكونُ فيه نجاتى . ولم أُضيِّعْ وقتى فى التفكير ، فسرعان ما جمعْتُ الخشب وكان من خشب الصندل الثَّمين ، وكنتُ لا أدركُ قيمتَه ، وفتلتُ من أليافِ بعضِ النباتاتِ والأغصانِ حِبالا شددْت فيها عيدانَ الصندل بعضَها إلى بعضٍ ، حتى تمَّ لى صنعُ الفلكِ ، وأنزلتُه إلى الماء ، وحملْتُ معى قليلا من الفاكهةِ لغذائى ، ونزلتُ فيه وأنا أرجُو السلام من الله . وسرتُ فى النهرِ ثلاثَ ليالٍ سويًّا ، ابتعدْتُ فيها عن المكانِ المزدحِم بالأشجارِ والأثمارِ ، ودخلتُ فى مكان يبدُو قحلا مقفِراً إلا من بعضِ الأعشابِ والحشائشِ الناميةِ على جانبَىِ النهر . وكان التعبُ قد أخذ منِّى مأخذاً كبيراً ، فانطرحتُ على الفلكِ أبغى النَّومَ ، وقد أسلَمْتُ أمرى إلى الله ، فلم ألبَثْ أن استغرقتُ فى نومٍ عميق .

انتبهتُ من نومى ، فإذا أمامى جبلٌ عالٍ ، وماء النهر يجرى داخل ذلك الجبلِ وقد تذكرْتُ ما قاسيتُه ، ودار بخاطرى ما عانَيْته فى سَفرتى السابقةِ من مشاقّ ، وما لاقيْتُه من أخطار ، فحاولتُ أن أقِفَ اندفاعَ الفلكِ مع التيارِ ، وبذلت كلّ ما أستطيعُ بذلَه ، ولكنْ ذهبَ كلُّ ذلك سُدًى ؛ فلم أستطِعْ وقْفَ الفلكِ ، أو تغيير اتجاهه ، وانفلتَ الفلكُ مُنْدفِعاً مع تيارِ الماء القوىّ اندفاعاً شديداً ؛ وسرعان ما كنتُ أنا والفلكُ تحتَ الجبلِ ؛ تحفُّ بنا جدرانُه ، ويكتَنِفُنا ظلامه ، فأسلَمتُ أمرى إلى

الله ، فهو قادرٌ على أن يُنْجيَنى ثانياً ، كما نجّانى أولا .

وكان اللهُ بى رحيما ، فلم يسر الفلكُ إلا وقتاً يسيراً ، حتى بزغَ أمامى نورُ الفجرِ ، فى شكلِ فجوةٍ يسطع منها الضوء ، فيبدِّد ليلَ الكهفِ ويخرجُ منها ماء النهر فى تدفُّقٍ شديد .

وبعد بُرْهةٍ كان الفلك مندفِعاً بى فى تيارِ ماء سريعٍ منحدرٍ ، يحدث سرعةُ انحداره خريراً مدوِّياً عالياً . ورأيتُ على جانبَي النهرِ وادياً واسعاً تسطعُ فيه الشمسُ ، فتشبَّثَتْ كلتا يدى بجانبَي الفلك ، خوفاً من انفلاتى وسقوطِى فى الماء ؛ وظللتُ فى محنَتى هذه ، لا أستطيعُ إزاءها عملا ، ولا أملكُ تجاهها حَوْلا ولا قُوة ، يلعبُ بى الماء ، ويترنَّح بى الفلكُ ، وقد غَشّى رذاذُ المـاء عَينى ، وطنّ دويُّه فى أُذنى ؛ ثم شَعرتُ بشىء يُلْقَى علىّ كالشباكِ ، ويلفّنى لفّاً ؛ فحاولتُ فتح عَينى لأتبيَّنه وأقِفَ على حقيقتِه ، فرأيتُ تجاهى مدينةً كثيرةَ الدورِ ، عاليةَ القصورِ ؛ ورأيتُ على ضفةِ النهرِ خلقاً كثيراً ينظرُون إلىّ ، ورأيتُ مايلفُّنى شباكاً كشباكِ الصيد ، ألقَى بها القومُ علىّ ليجذبُونى إليهمْ ، لمّا رأونى مندفِعاً مع انحدارِ النهرِ السريعِ .

وأفلحَ القومُ فى إنقاذِى ، وجذبُونى بشباكِهم إلى البرّ ، ثم خلصونى من الشباكِ ، فسقطْتُ بينهم شِبهَ ميّتٍ ، من كثرةِ ما قاسيتُ من جُوعٍ وتعبٍ وخوفٍ .

وتقدمَ من بين الجماعةِ رجلٌ مسنٌّ ، واقتربَ منى ، وسمعتُه وأنا فى شِبهِ غيبوبةٍ ، يرحِّبُ بِى ، ويشجِّعُنى ، وخلعَ عنى بمعاونةِ بعضِ الحاضرين

ما كانَ باقياً علىّ من ملابسَ مبلَّلةٍ ، وألبَسنى ثياباً أخرى . فشعرتُ بالدفء ، ودبت الحرارَةُ والحياةُ فى أوصالِى ؛ فشكَرتُ للرجل ورفاقِه حُسنَ صَنيعِهم ، وجميلَ إحسانِهم ؛ فقدْ خلصونى من موتٍ محقَّقٍ .

سألنى بعضُهم عن أمرى ، فأشارَ لهم الشيخُ أن يتريَّثُوا حتى أستجمِعَ قُواى ، وأستردّ نشاطى ، وأطمئنّ إلى وجودِى معهم ، وينشرح صدرى لهم .

طلب إلىّ الشيخُ أن أصحَبه ، فنهضْتُ ، وسرتُ معه معتمِداً على أذرعِ الرجالِ مِمَّا بِى من الإعْياء ؛ وما زلْتُ سائرًا معَهم حتى وصلْتُ إلى الحمّامِ ، فأدخلونى فيه ، فاستحمَمْتُ وانتعَشْتُ ؛ واطمأننْتُ ، وخرجتُ بعد ذلك من الحمّامِ بصحبةِ ذلك الشيخِ الكريم ، وذهبْتُ معه إلى دَارِه ؛ وهناكَ أكرمَنى هو وأهلُ بيتِه إكرامًا عظيماً ، وأحَلّنى من مجلِسه محلّاً كريماً ، وهيَّأَ لِى طعاماً فاخِراً شهيًّا ، فأكلتُ حتى شبِعتُ وحمدتُ الله ، وشكرتُ فضلَه ، وأفرد لى مضيفِى مكاناً من دارِهِ أبِيتُ فيه ، وأتمتّعُ فيه بكاملِ حريتى ، وألزَمَ غلمانَه وجوارِيَه بخدمَتى ، وقضاء حاجاتى ومصالِحِى ، فكانوا يسارِعُون إلى ذلك ، ملبِّينَ أىّ إشارةٍ تصدُر منى . وقضيتُ فى ضيافةِ هذا الشيخِ الكريم بضعةَ أيامٍ ، استعدْتُ فيها كاملَ قُوَّتى ونشاطى ، بفضل العنايةِ بِى ، والرعايةِ التى كانَ يَحْبونى بها .

ثم أتانى ذلك الشيخُ ذاتَ يومٍ وقالَ لى :

يا ولدى ، إننا لَفِى شدةِ السرور والفرح بنَجاتِك وسلامَتِك ووجودك

بيننا ؛ ولكن ، ألا تنزلُ معى إلى السوقِ وقد عاودتك عافيتُكَ ، لتنظرَ فى أمرِ بضاعتِك ؟!

فنظرتُ إلى الشيخ ، وقد تملكتنى الحيرةُ ، واستولى على العجبُ ، ولم أدرِ ، عن أىّ بضاعةٍ يتكلّمُ ! فلما رآنى لا أحيرُ جوابًا . قال :

يا ولدى ، لا تهتمّ ولا تفكّرْ . هيا بنا إلى السوقِ فإن وجدْنا من يدفعُ فى بضاعتِك شيئًا يُرضيك ، قبضْناه لكَ ، وإن لم نجدْ حفظتُها لكَ فى خزائنى ، حتى تحلَّ أيامُ البيع والشراء ؛ فإن للبيع والشراء عندَنا مواسمَ خاصةً ، يعرِضُ الناس فيها سِلَعهم وتجارَاتِهم ، ويقبلُ الحرفاء من هنا وهناك ، فتروجُ التجاراتُ ، وتزدحمُ الأسواقُ ، بالبائعين والمشترين؛ وفى غيرِ هذهِ المواسم تكونُ حركةُ البيع والشراء عندنا ضعيفةً ، وليست هذه الأيامُ مواسمَ التجارِ .

ازداد عَجبى ، واشتدَّتْ حَيرتى ، ووقفتُ مَدهُوشًا ، لا أحيرُ جوابًا ، وشككتُ فى أنى نجوتُ ، وفى أنّى فى يقظةٍ .

وبعد تردُّدٍ رأيتُ أن أطاوِعَ الشيخَ ، وأن أسايرَه ، حتى أرى ما سَيكونُ ، فقلتُ له :

سَمعًا وطاعة يا سيدى ، كلُّ ما تشيرُ علىَّ به طيّبٌ ولا أستطِيعُ مخالفتَك فيه .

وتوجّهْنا معًا إلى السّوقِ ، وهناكَ وجدتُ الفلكَ الذى جئتُ فيه ، وقد فُكّتْ ألواحُه وعيدانُه ، وهُيِّئَتْ على أن تُعرضَ للبيْع .

وجاء منادٍ فشرعَ ينادِي ويعرضُ خشبَ الصندلِ وعيدانَه فى المزايدَةِ ، وهو خشبٌ ثمينٌ ، يُقدِّرُ قيمتَه أهلُ هذه البلادِ ، لأنه نادِرُ الوجودِ عندهم ، ويصعُب عليهم أن يستجلبُوه من البلادِ التى يَنْبُتُ فيها .

وتزايدَ التجارُ ، وبالغُوا فى الثمنِ ، وتنافَسُوا فى الحصولِ على الخشَبِ ، حتى زادَ الثمنُ على ألفِ دينارٍ . عندئذ التفَتَ الشيخُ إلىّ ، وقال :

اسمعْ يا ولدِى ، هذا هو سِعرُ بضاعتِك فى مثلِ هذه الأيامِ ، أتبيعُها بهذا الثمنِ ، أم أحفظُها لكَ عندِى حتى يَحِينَ أوانُ رواجِ سُوقِها ، وزيادَةِ ثمنِها ، فنبيعها لكَ ؟ .

فقلت له : يا سيدى ، الأمرُ لكَ ، فافعلْ ما ترَى .

فقال : يا ولدِى ، أتبيعُنى هذا الخشبَ بزيادةِ مائةِ دينار ذهَباً على ما قدَّر التجارُ له من ثمنٍ ؟.

فقلت : نعمْ ، بِعتُ ، ولكَ شُكرِى .

فنقدَنى الشيخُ الثمنَ جميعَه ، ثم أمرَ غلمانَه ، بنقلِ الخشبِ إلى مخازِنه . ولما عُدْنا إلى منزِله أحضر لِى أكياساً ، ملأها بهذَا المالِ ، ووضعَها فى صندوقٍ ، أقفله بقُفْلٍ من حَديد ، ثم سلَّمنى مفتاحَه .

ومرتْ علىَّ بمنزلِ هذا الشيخِ الطيِّبِ أيامٌ أُخر ، أحلَّنى فيها أحسن مَحلّ ، وأكرمَنى أبلغَ إكرامٍ .

ولما طالَتْ إقامَتِى ، واختلَطْتُ ببعضِ الناسِ من أهلِ المدينةِ ، وكان

من بينهم بعضُ أقارِب الشيخ ، عرفْتُ أن الشيخ عندهُ بنتٌ في سنّ الزواجِ ؛ وعرفْتُ أنها مليحةٌ جميلةٌ ، فرعاء هيفاء ، وأنها وَحيدَته ، فليسَ عنده أولادٌ سِواها ؛ ولذلك يُعزُّها كل الإعْزازِ ، ولا يفكِّرُ إلا في راحتِها وإرْضائِها .

خلوتُ إلى نفسِي يوماً ، وأخذْتُ أفكِّرُ في أمري ، وطافَ بذهْني أطيافٌ وخيالاتٌ كثيرةٌ ، منها : أني رأيتُ ذلك الأب الشيخَ يعطفُ على ويكرمُني ، فأحسَسْتُ أن قَلْبِي قريبٌ من قلْبِه ، وأنّ بين روحيْنا تآلفاً شديداً .

أرخيت لنفسِي العِنان في التفكيرِ ، فخطرَ ببالي أن أفاتِح الشيخَ في التزْويجِ من ابنَتِه التي ليسَ له أولادٌ سِواها ، وإن أجابَنِي الشيخُ إلى ذلك كنْتُ جِدَّ سعيدٍ .

وكنت كلّما خلوتُ إلى نفسِي عاوَدَني التفكيرُ في هذا الموضُوع ، وازدَدْت تعلقاً به ، حتى حُبِّبَتْ إليَّ العزلةُ ، والاعتكافُ عن الناسِ ، ليسبحَ خيالي في جوٍّ واسعٍ من الأماني والآمال التي أرتِّبُها على هـذَا الزواجِ إذا تَمَّ

لاحظ عَلَيَّ الشيخُ وبعضُ من عرفَنِي من أقارِبِه ما أنا فيه من تفكيرٍ طويلٍ دائمٍ ، ومن مَيْل إلى الانفرادِ بنفْسِي ، والفِرار من الناسِ والمجتمعاتِ ، فسألُوني عما بِي ، فلم أجبْهم بشيء ، وأنكرْتُ أن في الأمرِ

شيئاً ؛ وقدّروا أن هـذا التغيير لم يَكن إلا فى التّفكير فى وَطنى وأولادِى وأهْلِى .

وأرادَ أحدُ من صادقتهم أن يعرفَ حقيقةَ الأمرِ ، فسألنى ، وألحّ فى السؤالِ ؛ فاضطُررْتُ إلى أن أكشِفَ له عما فِى نَفسِى ؛ فأعجبَهُ ذلك ، ووعدَنى أن يتحدثَ إلى الشيخ فى هذا الأمْرِ .

تحدّثَ ذلك الصديقُ إلى الشيخ فى أمرِ تزويجِ ابنَتِه من ذلك الرجلِ الغَريبِ ، ولَقِىَ ذلك هوًى من نفسِ الشيخ ، وقبل أن يُزوجَنى ابنَتَهُ التى لم يُرزقْ غيرَها ، لَمْ يجدْ حرجاً فى أن يصرِّحَ بأن ذَلك كانَ أُمْنِية من أمانيه ، فإنه كانَ يرى أنّ فِيه اطمئْناناً على ابنَتِه من بعدِه ، حيث يتركُها بين يَدَىْ رجلٍ كريمٍ أمينٍ مثْلِى . ثم قالَ لى : ستكُونُ مثلَ ولدِى ما دُمت حيًّا ، وجميعُ ما عندى ملْكٌ لكَ ، وإذا رأيتَ فى المستقبل أن تُعاوِدَ التجارةَ وتعودَ إلى بلادكَ فلَنْ يمنعَك أحدٌ .

فقلت : والله يا سيدِى إنكَ قد صرتَ لى فى منزلةِ الأبِ ، فالأمرُ أمرُكَ فى كل ما تُريدُ .

فأمرَ الشيخ من فَورِه بإحضارِ القاضِى والشهودِ ، وزوّجَنى من ابنَتِه وأوْلم لنا وليمةً عظيمة ، وأقام حفلًا كبيراً ، اشتركَ فيـه أغلبُ أهْلِ المدينَةِ .

وزُفّت إلىّ العروسُ ، فوجدْتُها باهرةَ الحسنِ ، بهيَّة الجمالِ ، ذاتَ قدٍّ واعتدالٍ ، مرتديةً أفخر الملابسِ ، متحليةً بأثمن الحُلى والجواهِر ،

فأعجبتْنى ، وفرحتُ بها ، وأحببْتها ، وأحبَّتنى . وأقمتُ معها وأنا هانئٌ سعيدٌ ، أَغْبِطُ نفسِى على هذا النَّعيم الذى ساقه الله إلىَّ ، وأهنِّئها على هذه السعادَةِ التى أرتَعُ فيها .

وكأنَّ الشيخَ وقد اطمأنَّ قلبُه على ابنتِــه ، وقرَّت عينُه بسعادتِها وبوجودِها فى عِصْمَةِ رجل يَذُودُ عنها ويَحميها — قد طابتْ نفسُه على تركِها وتركِ الدنيا ، فما لَبِثَ أن مَرِضَ مَرَض الشيخُوخةِ ثم مات ، فجهزْناه ودفنَّاه بما يليقُ بمكانتِه ومقامِه ، وأخذتُ فى مواساةِ زوْجَتى ، حتى سُرِّىَ عنها .

وحللْتُ بعد موتِ صِهرِى فى محلِّه ، وصــار جميعُ ما كان يملكه من غِلمانٍ ومالٍ وعقارٍ ملكَ يدى ، وولّانى التجارُ مكانه من الرياسَةِ عليهم ، فأصبحتُ شيخَ تُجارِ المدينة .

فلما خالطتُ أهلَ المدينةِ ، وعاملْتهم ، وعرفتُ عاداتِهم وطباعَهم رأيتُ من أمْرِهمْ ومن خلقِهم عجبًا . رأيت أغلَبَ الرجالِ فى ميعادٍ مَوقُوتٍ من كلِّ شهرٍ يَنْقَلِبُ خَلْقُهم ، وتتَغيّرُ أشكالُهم ، ثم تظهرُ لهم أجنحةٌ فيصيرُون كهيئةِ الطيرِ ، ثم يَطيرون إلى عنانِ السماء ، ويغيبُون أوقاتًا متفاوتةً ، تاركِينَ نساءهُم وأطفالَهم ، ثم يعودون .

تعجبتُ من أمرِ هؤلاء الناسِ وسألتُ نفسِى ، ومن أىِّ جنسٍ همْ ؟! وعلى أى مِلّةٍ يكونون ؟ ! وكيف تَنْبتُ لهم هذه الأجنحةُ التى تظهرُ وتختفِى ، وكأنها بفعلِ ساحرٍ عليم ، أو شيطانٍ رَجيم .

وكانت ملازمتي للشيخ ، وطولُ اعتكافي في داره، وعدمُ اختلاطي بالناسِ والبعد عنهم ، فلم أشاركهم في مجالسِهم ، ولم أعامِلْهم — كل ذلك جعلني لا أعرفُ عن هذه الحالة شيئًا في زمن وجودِ الشيخ ؛ فلما ماتَ ، واختلطتُ بهم ، وسايرتُهم ، وعاملتهم ، وأمّروني شيخًا عليهم — عرفتُ هذه الحالة العجيبة فيهم .

توجستُ خيفةً منهم ، وارتبتُ في أمرِهم ، وساورتني شكوكٌ كثيرةٌ، وتنازعتني خيالاتٌ وأوهامٌ لا حصرَ لها . ثمّ فكرتُ في أن أسأل زوجتي عن أمر هؤلاء الناسِ ، وأن أستوضِحَها حقيقتهم ، فلعلها تكونُ على عِلمٍ بسرِّهم .

ولكني عدتُ فعدلتُ عن ذلك ، وفضلتُ أن أبحثَ هذا الأمرَ بنفسِي ، فلعلّي أستطيعُ أن أكشفَ سرّه ، وأقفَ على خبيئته .

أتى اليومُ المعلومُ ، وهو اليومُ الذي يُغيّرونَ فيه هيئتهم ، فلم ألبثْ أن رأيتُهم طيورًا ، وهمُّوا بالطيرانِ .

أسرعْتُ إلى أحدِهم قبل أنْ يطيرَ ، وكان من تجارِ السُّوقِ ، فدخلْتُ عليه وأردْتُ أن أستدرجَه ، فقلتُ له :

أقسمتُ عليك يا أخِي بالله أن تحملَني معكَ في طيرانِك ، حتى أتفرّجَ من الجوّ على مشاهدِ الدنيا وأعودَ معكم .

فقال لي : هذا شيءٌ لا يمكِنُ أبدا ، ولا أستطيعُ أن أفعلَه قط .

فكرّرْتُ عليه القولَ وألححْتُ عليه في الرّجاء ، وكنت كلما

أمعنْتُ فى الإلْحَاح أمْعنَ هو فى الرَّفْضِ . ولكنِّى لم أيأسْ ، فمازِلْتُ أُلحُّ وأُلحُّ حتى ضاقَ بى ذرْعًا ، ولم يجد مناصًا من القبولِ ، وعَلى غير رَغبةٍ منه .

حمَلَنى الرجلُ فوقَ ظهرِه ، وطارَ بى مع رفاقِه وأخذُوا يرفرِفون بأجنِحَتِهم التى نبتَتْ فى جُنوبهم فجْأةً ، وكنت قد فعلْتُ ذلك فى سرٍّ من زوجتى وغلمانى وأصحابى .

وما زال الطائرون يرتفِعون فى الجوِّ ، حتى بلغُوا طبقاته العُلْيا . فطُمِسَت الأشياء والمعالمُ أمام عَينى وأصابنى دُوارٌ خشيتُ معه السقوطَ من فوقِ ظهر حامِلِى فتشبَّثتُ به بكل ما بَقِىَ لى من قُوةٍ واحتمالٍ .

وبينما أنا أُعانى ويلاتِ هذه المحنةِ القاسيةِ التى قذفْتُ بنفْسِى فيها فوقَ ظهر الرجُلِ الذى كان يشُقُّ أجوازَ الفضاء كالشِّهاب الراصدِ ، أو كالنَّجمِ الثاقِبِ ، طرقَ أُذُنى تسبيحٌ وتكبيرٌ باسم الله ، فانتبهْتُ من شبهِ غشيةٍ كنْتُ فيها ، وطافَ بخاطِرى أنهُ تسبيح الملائكة فى سماواتها ، فلم أتمالَك أنْ هتفْتُ : سبحانَ الله ، والحمدُ لله .

وما أتممتُ تسبيحى ، حتى أحاط بالطَّائِرِين شواظٌ من نارٍ ، كادَ أن يحرقهم ، فهبطُوا مسرعِين ، وألقَى بى حامِلِى على ظهرِ جبلٍ ، وخلَّوْنى ومَضَوا ، وهم فى أشدِّ الغَضبِ مِنِّى .

فوقفْتُ على ظهر الجبلِ أتأمّلُ موقِفى ، وأنا متحيرٌ مشدوهٌ ،



لا أدرى ما أفعلُ ! . تملكنى حزنٌ شديد ، ويأسٌ قاتلٌ ، وعدتُ باللائمةِ على نفسى ، وكنتُ أعتزُّ من شدةِ الغيظِ ، وكادت مرارتى تنشَقُّ ، وصرت أحدث نفسى وأُقرِّعُها :

مَالِى أطيرُ مع هؤلاء الطائرين ؟ ! وماشأنى معهم ؟ ! وما الذى سيعُود علىّ من كشفِ أمرهم ؟ ! أفلا أستطيعُ كبحَ جماحِ نفسى هذه ، الطائشةِ ، الأمّارةِ بالسوء ، التى لا ترتدعُ ولا تعتبرُ ؟ ! وكلما خرجتُ من ورطةٍ ، قذفَتْ بى فى وَرطةٍ أشد .

وكلما ركنتُ إلى الراحةِ ، واستطبتُ رغدَ العيش ، وتذوقتُ طعمَ السعادةِ والنعيمِ — زجتْ بى نفسى وغَوَايَتِى ، وألقيتِ بى بين مهاوى التهلكةِ ونارِ الجحيم ؟ !

أما كفانى ما لقيتُه من ألوانِ الشقاء ، وقاسيتُه من مِحنٍ قاصمةٍ ، يشيبُ من هولِها الوِلْدانُ ، حتى جئتُ أجرب حَظّى مع المَردةِ والعفاريت ؟ !

يا إلهى ، لَئِن أنقذتَنى فى هذه المرّة ، فلَنْ أُخاطِرَ بنفسِى بعد ذَلك أبدا ! !

يا إلهى ، لئِن عدتُ إلى زوْجَتِى ودَارِى ونَعيمِى ، فلن أُفكِّرَ أبداً فى غيرِ حمدِكَ ، وشُكرِكَ ، وتسبيحكَ ، وتقديسِكَ ، والصلاةِ لك !

وفيما أنا أضربُ فى عرضِ الجبلِ مذهُولا تائِهاً ، مسلوبَ اللُّبِّ

والرشاد — أبصرتُ أمامي فجأةً غلامَيْن قادِمَيْن عليّ ، لم أدرِ من أين جاءا ، يَشِعُّ من وجهَيهِما بهاءٌ ونورٌ ، وبيدِ كلٍّ منهما قَضيبٌ من ذهَبٍ يتوكَّأُ عليه ، فلما أبصرتُهما دبَّ في نفسِي دبيبُ الفرح والأمل ، وتقدمتُ إليهما ، وألقيْتُ عليهما السلامَ . فردا على السلام . فقلتُ لهما :

بالله عَلَيْكما ، من أنتُما ؟ ! وما شأْنُكُما ؟ !

قالا : نحن من عِبادِ الله .

وأعطياني قَضيباً من اللذَينِ كانا معَهما وخلّفاني ، ومَضيا ، من غير أن يَزِيدَا .

فتعجبْتُ من أمر هذَين الغلامَينِ ، ومن شأْنِهما ، ومن وجُودهما فوق هذا الجبلِ ؛ وفكّرْتُ في أن أتبعَهما ، وأقتفِي أثرَهما ، لعلّني أجدُ طَريقاً يكونُ فيه النّجاة ، ولكنّهما كانا قد اختفَيا عن ناظِري فجأةً ، فلم أعرفْ أين ذَهبا : أطارَا في السماء ، أم ابتلَعتْهما الأرضُ ، أم اختَفيا في كَهْفٍ لا أعرفُه ؟ ! لستُ أدرِي

فمضَيتُ أسيرُ فوق الجبلِ على غيرِ هُدى . ودون أن تَبرقَ أمامِي بارقةُ أملٍ ؛ وأنا أتوكّأُ على القَضيبِ الذى قدّمهُ لي الغُلامان ، حتى قطعتُ شوطًا بعيداً .

وخُيِّل إليَّ بعد حِينٍ أن الجبل قد بدأ يقلُّ ارتِفاعا ، ويزيد تدرُّجا فوطَّنْتُ العزمَ على الجِدِّ في السيرِ ، فقد أجدُ مكانا أستطيعُ الانحدارَ منه إلى بَطْنِ الوادِي .

وفيما أنا أحاولُ يوماً الهبوطَ من فوقِ إحدى الصخورِ إلى الصخرةِ التى تَليها — بعد أنْ قضيتُ أياماً ساعِياً فوقَ هذا الجبلِ — طرقَ أذنى صوتٌ ، فوقفتُ أتسمّعُ فلم أسمعْ غيرَ صُراخٍ وعويل ، فَدرْتُ ببَصرى أبحثُ عن مصدَرِ هذا الصّوتِ ، فأبصرتُ شيئاً يزْحفُ ويتلَوّى ، فأخذتُ أتبيَّنهُ ، فإذا هو حيةٌ كبيرةٌ هائلةٌ قد التقمَتْ ساقَىْ رجلٍ ، وتعمَلُ على ازدِرادِ بقيةِ جسمِه ، والرجلُ يصرخُ ، ويصيحُ قائلًا :

من يخلصْنِى يخلصه الله من كل ضيق وشدة ، من يفرجْ كَرْبى يفرج الله عنه كَرْبَهُ يومَ القيامة .

وبحركةٍ لاشعوريّةٍ ، وجدتُ نفسى قد اندفعْتُ نحو هذهِ الحية البشعة ، ثم أهوَيتُ على رأسِها بقضيبِ الذهبِ الذى فى يَدِى .

فما كانتْ إلا ضَرْبة واحدة ، حتى لفظَتِ الحيةُ على أثرِها الرجلَ من فمها. فلما وجد الرجُلُ نفسه حُراً طَليقاً ، أكبَّ على يدىَّ يُوسِعُهما لثْماً وتَقبيلاً ، ودموعُ الفرحِ تهطِلُ من عَيْنَيْه ، وهو يَقولُ لِى :

لقد أسرتَنى يا سيدى بمعروفِك ، وطوقْتَ عُنقِى بجميلِك : فقد أغثْتَنى ، وفرجْتَ كَرْبى ، وأنقذْتَ حَياتى ، فصيّرْتنى بذلك خَادِماً لكَ ، وعبداً من عَبيدِكَ ، ولن أفارقَك فى مسيرِكَ .

فقلتُ له : مرحباً بك مِنْ رفيقٍ أنيسٍ ، وصاحِبٍ ومُعِينٍ .

وقصَصْتُ على الرجلِ قصّتِى ، فدَهِش منها ، وتعجَّبَ . وقال لى : إنه خرج يجوبُ الجبلَ بحثاً وراء بعض الحشائشِ الطيبةِ ، فخرجت عليه هذه الحيّةُ التى كادتْ تبتَلِعُه ، وخلّصْته منها ، ثم عرضَ علىَّ أن أصحبه

إلى مدينَتِهِ، وكان يعرفُ طُرُقَ الجبلِ ومسالِكه، خَبيراً بشِعابِهِ ودُروبِهِ.
ففرحتُ بهذا أشدَّ الفرح، وسُرِرْت من لِقائى لهذا الرجُل الذى أتانى على يَدَيْهِ الفرجُ.

وأسرعْنا فى السيرِ على سُفوحِ الجبلِ ومنحدراتِهِ أياماً أخر، كان غذاؤُنا فيها ما نلقاهُ من الطحالبِ والأعشاب، ونَوْمنا بعضَ ضجعات قصيرةٍ فيما نجِدُه فى طريقِنا من الكُهُوفِ.

وذاتَ صباحٍ كنَّا نجدُّ فى السيرِ كعادَتِنا، قبل أنْ يرتفِعَ قرصُ الشمسِ فى السماء، ويسلِّطَ علينا أشعتَه المحرِقَة التى تحدُّ من سَيْرِنا، وتثبِّطُ من عَزِيمتِنا — وَقعَ نظرُنا على جماعةٍ من الرجالِ جالسِين، تدلُّ هيئتُهم على أنهمْ قد استيقَظُوا من النَّومِ قَريباً، فإنَّ آثارَه ما زالَتْ فى عيُونِهم، ففرحْنا برؤيَتِهم، ولكنَّنا اقتربْنا منهم على حِرْصٍ وحَذَرٍ.

دققتُ النظر فيهم، وما كان أشدَّ دهشتى حين رأيتُ بينهم الرجلَ الذى كانَ يحملُنى، وتركَنى فوقَ الجبل.

وما دَريتُ بعد ذلكَ إلا وأنا مُكِبّ عليه أُقبِّلُ رأسَه ويدَيْهِ، أطلُبُ منه العفْوَ عنى مُعتذِراً إليه عَمّا عسَى أن يكُونَ قد صدرَ منِّى مما أغضبَهُ علىّ. وقلتُ له متلطِّفاً معاتِباً، وقد رأيْتُه يعرِضُ بوجهه عنِّى:

يا صاحبى، ما هكذا يَفعلُ الأصحابُ بأصحابِهمْ.

فقال: أنتَ الذى كدتَ أن تُهلِكَنا بتسْبيحِكَ حينما كنتُ أحملُكَ على ظَهرِى.

فقلت له : إننى لم أكُنْ أعلمُ من أمرِكم شيئاً . ولكن خُذْنى معك ، وعهدِى لك ألا أنبسَ ببِنْتِ شفَةٍ ما دُمتُ فوقَ ظهرِكَ . وبعد لأْىٍ قَبِلَ أن يأخذَنى معه ، وحمَلَنى فوقَ ظهرِه ، وشَقَّ بى الفضاء ، وما زالَ طائرًا حتى حَطَّ بِى قربَ منزِلِى .

ودخلت على زَوجتى ، فلما رأتْنى هبّتْ فَرِحةً بلقائى ، وعانقتْنى وقبَّلتْنى . ثم أخذتْ تستفسِرعن سببِ غيابِى ، وعِلّةِ تركِى لهـا ، وهَجْرِى لمنزلى تلكَ الأيامَ الطويلةَ ، ورأيتها ذابلةً شاحبةَ اللون ، مُقرَحة الجفنين من فَرطِ ما حَمَلتْ من همٍّ ، ومن كثرةِ ما أراقتْ من دَمع .

فعزَّ علىّ ما سَبَّبْتُه لها من حُزْنٍ ، وجلبتُه لها من غمٍّ ، بحماقتى وسوء تصرُّفِى . فأخذتُ أعتذِرُ لها ، وأخبرتُها بكلِّ ما كانَ من أمرِى ، وما فعلتُه ، وما حدثَ لِى .

فقالتْ : احترسْ بعد ذلكَ من خُروجِكَ مع هؤلاء الأقوامِ ، ولا تعاشِرْهُم ، ولا تخالِطْهمْ ؛ فإنهم إخوانٌ للشّياطين ، ولا يعرفونَ اللهَ .

فقلتُ لها : وكيفَ كان حالُ أبيكِ معهُمْ ؟ .

قالت : إنَّ أبى لم يكنْ منهم ، وهو برىءٌ من فِعْلِهم ، واعلمْ أنه ما فضَّل تزويجى منكَ إلا لتَكُون حامياً لِى ، وردْءاً يدْفعُ عنى شرَّ هؤلاء القومِ ، لِمَا رآكَ عليه من الصّلاحِ والتقوَى ، والاتصالِ باللهِ ، والبُعدِ عن الشّيْطانِ .

والرأىُ عندِى ، وقد ماتَ أبى ، وليسَ لنا مأربٌ فى الإقامة فى هذا

المكانِ ، الذى نحنُ كالغُرباء فيه بدينِنا وطِباعِنا — أنْ نَبيعَ ما نملكُ ونشترِىَ بثمنِه تجارةً ، وننزحَ إلى بلدِكَ ، الذى أُرجِّحُ أنك فى أشدِّ الحنينِ إليهِ ، وقد ظننْتُ لما طالَ غيابُك عنى أنكَ قد ارتحلْتَ إلى بلدِك ، ولكنى عدتُ واستبعدْتُ هذا الظَّنَّ ، لَمَّا علِمْتُ أنه لم يجئْ إلى مدينتِنا سفينة ارتحلتْ عنها مُدَّة غيبتِك .

فاستحسَنْت رأيَها ، واستصوبتُه ، فإنه لم يتجاوَزْ هوًى كان بنفسى ، وشرعْتُ فى تصفيةِ التجارة ، وبيع العقار ، وتفريقِ ما فى المخازِن شيئًا فشيئًا .

ولكن طالَ انتظارُنا لليوم المنْشُودِ : اليوم الذى تأتى فيه سفينةٌ تحملنا إلى وجهتِنا . كرت على ذلك الأشهُرُ ، ومرّت السّنون ، ونحن على ما نحنُ عليه من انتظارٍ وتَشَوُّق وترقُّبٍ ، حتى ماتَ فينا الأملُ ، أو كادَ ، وضعفَ منا الرّجاء ، وابتدأْنا نوطن أنفسَنا على ألّا حياةَ لنا غير هذه الحياة ، وأننا سَنَظَلُّ كذلك ما بَقِىَ لنا من العُمرِ ، فلا تغييرَ ولا تبديل .

ولكن شاء اللهُ بعد ذلكَ أن يُغيِّرهذا الأمر تغْييراً ، ويبدّله تبديلا . فقد هَبَّ جماعَةٌ من التجارِ والرحالةِ المؤمنين يبغُون الضرْبَ فى أرضِ الله ، والتجول فى بحارِ الدُّنيا ، ومنهم من يبغى التجارةَ والسعىَ وراء الرِّزقِ ، ومنهم من يَبغى الحجّ أو المجاورَة . وأمّا سبيلُهم إلى ذلك ، فهو أن يتفِقوا فيما بينَهم على بِناء سفينةٍ ، تَحملُهم وتحملُ ما يأخذونَ معَهم من زادٍ ومتاعٍ ، وتجاراتٍ وغيرها .

وما وصلَتْ إلى علمى أنباء هذه النيَّة ، حتى أيَّدْتُها ، وتحمسْتُ لها بكل ما بى من قوةٍ ، وطفتُ على جميع من أبدى رغبةً فى السفرِ أحثُّه وأحمِّسُه . ثم كنتُ بعد ذلك من أولِ المنفذِين للفكرةِ بمشاركتى فيها بالمالِ ، والنشاطِ الذى كنت أبذُلُه ، وبالإغراء الذى كنتُ أغرى بِهِ مَنْ على شاكلتى من الناسِ .

وكُلِّلَ العملُ بالنجاحِ ، وابتدأ هيكل السفينةِ يتكوَّنُ شيئاً فشيئاً بمعاوَنةِ عمالٍ لهم درايةٌ وخبرة ببناء السفن .

وأتى اليومُ الذى احتفَلْنا فيه بإتمامِ السفينةِ ، وإنزالِها إلى البحرِ ، بعد مدةٍ من الزمنِ قضيتُها فى المجاهَدةِ والمكافَحةِ ، وتَذليلِ ما يعترِضُ بناءها من صِعاب .

وانتخبْنا لهـا رُبَّاناً وبحَّارةً ممن لهمْ إلمامٌ بشئون البحر ، وطرقِه ، ومسالكِهِ ؛ ومعرفة بمهابِّ الريحِ واتجاهاتِها . وأنزلَ بها الركابُ متاعَهم ، والتجارُ حمولتهم ، وحلَلْتُ بها أنا وزوجتى وأحمالى ، ومن رَغِبَ فى مصاحَبتِنا من الغلْمانِ والجوارى ، وسرْنا عَلَى بركةِ اللهِ يحدُونا الأمل ، ويدفَعُنا الرجاء .

وجابَت بنا السفينةُ المحيطات والبحارَ ، ومرت على بلادٍ وجزرٍ ما رأيتُها ولا مرَرْت بها من قبلُ ، على كثرةِ ما طفتُ وسافرْتُ ؛ وكنا كلما رستْ بنا السفينة بميناء زاولْنا فيه البيعَ والشِّراء والمقايضةَ ، وكان نصيبُنا جميعاً من ذلك ربحاً وفيراً .

ودخلَتْ بنا السفينة بعد ذلك فى مياه أعرفُها . وطافتْ بنا على بلدان وموانىْ قريبة من بلادِنا ، فارتاحَتْ نفسى ، وتنفسْتُ الصعداء ، لانتهاء الرحلةِ فى زمن أقصرَ من زمنِ كل رحلةٍ رحلتها من قبلُ . فإن الأنواء والأعاصيرَ لم تُعاكِس السفينةَ ، ولم تعوِّقْها فى أثناء هذه الرحلةِ الطويلة إلاّ قليلا .

ووصلْنا إلى البَصرةِ بعون الله ورعايتِه ، فلم أُقِمْ بها ، بل اكتريْتُ من فورِى مركَبًا أنزلْتُ به أهْلى وأحمالى ، وسِرْنا فى نَهر دجلَة ، حتى وصلْنا إلى بغداد ، دارِ السلام .

* * *

ولا تسألُوا يا إخوانى ، عن فرَحَتِى برجُوعِى إلى وطنى ، وملاقاة أهلِى ، الذين كانُوا قد فقَدُوا الأملَ فى رجُوعِى ، وعدُّونى من زمَنٍ فى عداد الأمواتِ والمفْقودِين بعد أن تَغيّبْتُ عنهم فى هذه السَّفرةِ كلَّ هذه السنين الطويلة ، التى زادَتْ على كل مدّةٍ قضيتُها فى أى سفرةٍ من سفَراتى السابقةِ .

وما كدْتُ أصلُ إلى دَارِى حتى انتشر خَبرُ عودَتى فى أنحاء المدينةِ ، فخرجَ الناسُ من أهلِها أفواجًا وجماعَاتٍ قاصدِين إلى دَارى ، مهنِّئِين مسلِّمِين ، فما غَفلْت عن فَردٍ إلا أكرمْتُه ، وما خلّيْتُ نفراً إلا أهدَيْتُ إليْه ، وما تركْت فقيراً إلا وَصلْتُه وأطْعَمْتُه .

وعشْت مع زوجتى وأهْلِى : هانئًا ، وادِعًا ، راضيًا ، مطمئِنًا ؛ وقد ثُبتُ

وأنبْتُ ولم يَعدْ بي شَوقٌ إلى السَّفرِ والتَّرحالِ ، بعد أن تقدَّمتْ بِي السِّنُّ ، ووهَنَ منِّي العظمُ وضعفَتْ منِي القُوَّةُ . وفتَرَ منِي النَّشاطُ .

وقد وَجدتُ أن الإنسانَ يستطِيعُ أن يعملَ عملاً يَرضَى به عن نَفسِه ، ويُرضِي به غيرَه ، وينفعُ به أهله ووطنه ، من طُرقٍ كثيرةٍ ، وأبوابٍ شتّى ، فتفرغتُ لذلك العمَل وكرّستُ له وقتى ، فملأ فَراغِي ، وأشاعَ الطمأنينَةَ فى نفسِى وعاد بالخيْرِ والسعادَةِ على الفردْ والمجْمُوعِ .

وكان عملِي هو برِّى بالفُقَراء ونَصرِى للمظْلُومِين ، وتفريجِ كربَةِ المكْروبِين ، وإغاثةِ الملْهوفِين ، وتربيةُ اليتامَى ، ويساعدُنى على ذلك ما جَمعتُ من مالٍ ، وما أسْتَثمِرُ فيه مالِي وأنا فى بَلدِى من القِيامِ بمشْروعاتٍ عُمرانيةٍ كثيرةٍ تعودُ على أبناء الوطَنِ بالخيرِ العَميمِ .

• • •

والآن يا أيها السندبادُ البرى ، هل ترانى كما رأيْتَنى أولَ وهلةٍ ؟ وهل تَصِفُ منزلِي كما وصفْتَه من أول نَظْرةٍ ؟

فقال السندبادُ الحمّال : والله يا سيدى إنّه ما مِنْ أحدٍ غيرِكَ يستأهلُ النعيم بقَدرِ ما قاسَيْت ، ولا يستَحقُّ الهناءَةَ بقدر ما عَانَيْت ، ولا يَنْتظِر مثوبةً من الله بقدر ما قدَّمت .

فقال السندباد البحرى : وإنا لَنطلُبُ من الله عزّ وجلّ أن يُعينَنا على أداء رسَالَتِنا ما بَقِيَ لَنا عُمرٌ .



خاتمة

انتهى السندباد البحرىّ من سَرْدِ قصص رحلاته السّبع على صاحبه السندباد البرىّ ، وعلى من كان يُجالسُهما من الأصحاب ، وكان حديثُه مُمتِعًا جميلا ، يُنْصِتون إليه ، ويُتابِعونه ؛ ويظهرُ أثرُ ذلك فى وجوههم : تَنبَسِطُ أساريرهم إذا سمعوا ما يَسُرُّهم ، ويُقَطِّبون جبينهم إذا سمعوا ما يَحزُنهم ؛ وكانت المغامراتُ التى قام بها السندبادُ البحرىُّ ، والمخاطرُ التى لاقاها فى مَتاويه البحر ، ومفازات البرّ ، وألوانُ العذاب التى قاساها ، وعجائبُ المخلوقات التى صادفها : من ثعابين ، وحيات ، وقرود ، ومن أناسىّ لهم عادات لم يألفها ، ومن حكام مَرَنوا على أساليب من الحكم لم يعهدها — كانت هذه الأشياء كلُّها تهز مشاعرهم ، وتحركُ وِجدانهم ؛ لذلك لم يكن



عَجَباً أنهم أبْدَوْا للسندباد البحريّ بعد أن انتهى من حديثه سرورهم بما سمعوا من جمال الحديث وطَرافَتِه ، ومن غريب الحوادث .

فرد عليهم السندبادُ البحريُّ بأنه كان سعيداً بهم ، ولا سيما صاحبه السندباد الحمال .

ثم دعا خازنَ ماله ، وأمره أن يعد بَدْرةً فيها ألف دينار ؛ فأعدها ، وقدمها هدية لصاحبه السندباد الحمال ، وقال له :

اعلم ، يا صديقي ، أن ما قصصته عليك مما لاقيت من أهوال ، وتكبدت من مخاطر ، وقاسيت من صعاب ، وعانيت من شدائد — لا يصور الحقيقة التي وقعت ؛ فإن الوصف شيء ، والمعاناةَ شيء آخر . ولعلك تعتقد بعد هذا أن إنساناً ، كائناً من كان ، لا يستطيع أن يَحْتَمِلَ ما احتملتُه كلَّه أو بعضَه ؛ ولولا أني صَبَّرْتُ نفسي على الاحتمال ، وأكرهْتُها على الرضا — لما وصلت إلى ما تراني عليه الآن من جاهٍ وغنى ، ولما رأيت ذلك القصرَ الفخمَ ، وهذا البستانَ الممتلئَ بصنوف الأشجار ، وألوانِ الفاكهة ، وأنواعِ الثمار .

ولو أني رَكَنْتُ إلى الراحة ، واستسلمت إلى الدَّعَةِ ، وآثرت السلامة — ما كنت إلا إنساناً عادياً مغموراً ، أقْنَعُ بِشَظَفِ العيش ، والملبس الخشن ، والمسكن الحقير .

وإن النفسَ الكبيرة تركب الصِّعاب ، وتَسْتَعْذِبُ التعبَ — لتصلَ إلى الراحة ، وتستَمْرِئُ البؤسَ لتصل إلى النعيم .

وما كاد السندبادُ البرىُّ يسمع هذا الكلام ، حتى نهض من مجلسه ، وتقدم إلى السندباد البحرى ، وأخذ يده ، وأوسَعَها لَثْماً وتقبيلا ، وقال له :

إنك رجل حقًّا ، عرفت كيف تَشْقَى لتَسْعَد ، وكيف تَتْعَبُ لتستريح ؛ فهنيئاً لك ما أنت فيه من عِزٍّ ونعيم ؛ مَتَّعك الله بصحتك ، وبارك لك فى مالك .

رأى السندبادُ البحرىُّ فى عينَىْ صاحبه السندبادِ البرىِّ أنه يدعو له من قلبه ، ولمس فيه الإخلاص والمحبة ؛ فرأى أن يستعينَ به فى تدبير ماله ، وأن يجعله وكيلا له .

قَبِل السندبادُ البرىُّ ذلك مسروراً ، وقام على مال صاحبه ، وأحسن القيامَ عليه ، وعمل على تَثْميره وتنميته .

وعاش السندبادان معاً : يخلص كل منهما للآخر ، ويعزُّه ؛ لا يستغنى أحدهما عن أخيه ، ولا يصبر على فراقه ؛ ودامت العشرة بينهما ، فقضيا حياةً : رغيدةً ، هانئةً ، سعيدةً .

تعقيب وتحليل

يرى بعض المستشرقين أن قصة السندباد ألفت على أنها رواية خاصة ، لا صلة لها بكتاب ألف ليلة وليلة ، ثم أضيفت إليه بعد ذلك ، واعتبرت جزءاً منه ، وقسمت إلى ليال : شأنها فى ذلك شأن بقية قصص الكتاب ، وشأن الكثير الذى أضيف إليه أيضاً قبل قصة السندباد أو بعدها ، ودخل فى حساب لياليه .

وأيًّا ما كان فإن قصة السندباد هى تلك القصة الخالدة ، ذات الخيال الخصب ، الذى كان له أثره فى العالمَيْن : الشرقىّ والغربىّ .

وقد توفر المستشرقون على دراسة هذه القصة ، وأخذوا يخمنون الزمن الذى ألفت فيه : أهو القرن الثالث كما رأى دوجويه ونولدكه ؛ أم هو القرن الذى يليه كما رأى بروكلمان وهوازت ؟ .

ثم اختلفوا فيما بينهم فى أصل قصة السندباد : أهو عربى أم غير عربى ؟ .

فبعضهم رأى أن أصل القصة عربى على الرغم من أن اسمها غير عربى ، ثم أضيفت إليه زيادات القصاص التى نسجها خيالهم حتى صارت على وضعها هذا .

و إن العرب أنفسهم كانوا يعرفون غير قليل عن البحار ، وما يكتنف ركوبها من مخاطر وأهوال ، وكانوا يظنون أنهم بعد أن ينحدروا من البصرة ، ينحدرون إلى بحر لُجِّى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب : ظلمات بعضها فوق بعض ؛ وأن هذا البحر قلما ينجو راكبه ؛ أو قلما تفلت سفينة من موجه العاتى ، ورياحه الشديدة الكاسرة ، وحيواناته العجيبة الغريبة ؛ وكانوا يعرفون أن وراء هذا البحر جزرا فيها بلاد ومدن كلها خيرات ، فمن استطاع أن يصل إليها جمع من كنوزها وجواهرها ما يُغْنِى به دهرَه كله ، ويضمن معه عيشاً هنيئاً رغيداً مع أهله ، و بين أبناء بلده .

عرف العرب هذا ، وأكثر منه ؛ فلم يعدموا رجالاً منهم مخاطرين ، يدفعون بأنفسهم إلى ما وراء البصرة ، وفى بحر كله ظلمات ، لعلهم يجدون من وراء ذلك مالا وغنى ، ولعلهم يعودون إلى بلادهم بعد أن يغامروا فيخلعون على أهلهم عيشاً سعيداً ، وحياة رغيدة ، ولا يمنعهم ذلك ما يسمعون من أن فى هذه البلاد سمكا كبيرا طويلا ، يظهر فى هيئة الحير والبقر ؛ ولا يحول بينهم وبين وادى الماس ما فيه من الأفاعى العجيبة الخلقة ؛ ولا يفزعهم جبل القرود ، والثعابين التى تأكل الآدميين ، ولا يهولهم منظر الرخ الذى يستطيع أن يمسك فى مخالبه صخرة كبيرة ، إذا قذف بها مركباً كبيراً ، حطمه تحطيما .

ورحلات السندباد ليست إلا بعضاً من هذه الرحلات : خرج صاحبها من بغداد إلى البصرة ، ثم انساح بعد البصرة فى ذلك البحر الذى لا يعرف له أولا ولا آخراً ، فلم يكد يمعن فى البحر حتى تحطم مركبه لسبب من الأسباب ، أو صادفته هو ورفاقه جزيرة من الجزر ، فخرجوا إليها ، ولكن رفاقه يعودون إلى المركب ، ويقلعون ، ثم يأتى من بعدهم فلا يجدهم ، ولا يجد المركب ، فتصيبه أحداث وأحداث ، وتمر على رأسه بلايا عظام ، يكاد ينفد لها صبره ، وتنحل عزيمته ، ولكنه لا يلبث أن يأتيه الفرج ؛ ويعود بعد ذلك إلى بلاده غانماً سالماً .

ولا يكاد يقيم فى بلده حتى ينسى ما أصابه من صعوبات ، وتشتاق نفسه إلى معاودة ركوب الخطر ، لا لمجرد الرحلة والانسياح ، ولا بغية معرفة ناس غير الناس ، أو بلاد غير البلاد ؛ ولكنه يبغى الحصول على المال الذى لا يستطيع أن يصل إلى الكثير منه إلا عن طريق التنقل والاتجار .

وقد كان ما يسمعونه عما فى بلاد الفرس والهند والصين من الذهب والفضة والماس والأحجار الكريمة ، وغير ذلك — يغريهم دائماً بمثل هذه الرحلات الكثيرة الخطيرة .

ولذلك لم يكن عجيباً أن السندباد كلما عاد إلى بلده ، واستقر به المقام ، واطمأن

على أهله ، ونسى متاعبه — فكر فى أن يعود إلى رحلة أخرى ، ولا يفكر فى أنها قد تكون أشق من رحلته السابقة ، وأشد عسراً ؛ لأن حب المال كان يسيطر عليه سيطرة تصرفه عن التفكير فى أى شىء آخر حتى نفسه وحياته ، ولأن ميله إلى ركوب الأخطار كان ينسيه كل شىء .

وبذلك تمت رحلاته سبعا ؛ فى كل منها مغامرات خطيرة ، ومفاجآت عجيبة ، ويأس من النجاة ، واستسلام إلى الموت ؛ ثم نجاة فيها حياة وعز ونعيم وغنى .

وساعد على تأليف هذه القصة ما عرفه العرب عن قصص الرحالين العرب : كابن الحائك[1] ، وابن فضلان[2] من رحالة القرن الرابع الهجرى ؛ ثم ما ألف فى عجائب الكون مثل كتاب : عجائب المخلوقات للقزوينى[3] ، وخريدة العجائب لابن الوردى[4] ، ومثل ما ورد فى كتاب : مروج الذهب للمسعودى[5] ؛ ومثل

---

(١) ابن الحائك : هو أبو محمد الحسين بن أحمد بن يعقوب ؛ حكيم ، عالم بالأنساب ، والفلك والفلسفة ، والأدب ؛ من أهل اليمن ، توفى بصنعاء سنة ٣٣٤ هـ ، سنة ٩٤٥م واشتهر بابن الحائك ؛ ومن مؤلفاته : صفة جزيرة العرب ، والمسالك والممالك ، وعجائب اليمن .

(٢) ابن فضلان : هو أحمد بن فضلان بن العباس ، مولى محمد بن سليمان. أنفذه المقتدر بالله العباسى سنة ٣٠٩ هـ إلى ملك الصقالبة بمهمة ، فكتب رحلة عرفت باسمه ؛ ذكر فيها ما شاهده منذ خروجه من بغداد إلى أن عاد إليها. وفيها وصف مملكة الصقالبة ، وعاداتهم ، وغير ذلك . وله رسالة عن الروس ؛ عنى بنشرها مع ترجمة ألمانية لها العلامة فراهين ، وأضاف إليها ما وجده فى كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة .

(٣) القزوينى : هو زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك الأنصارى النجارى : مؤرخ جغرافى ولد بقزوين سنة ٦٠٥هـ ، سنة ١٢٠٨م ورحل إلى الشام والعراق ؛ توفى سنة ٦٨٢ هـ ، سنة ١٢٨٣م . ومن كتبه آثار البلاد والعباد ، وخطط مصر (مخطوط) ، وعجائب المخلوقات ؛ وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية والألمانية والتركية .

(٤) ابن الوردى : هو زين الدين عمر بن مظفر . شاعر ، أديب ، ، مؤرخ . ولد فى معرة النعمان ، وتوفى بحلب .

(٥) المسعودى : هو أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى : من ذرية عبد الله بن مسعود ؛ ومن مؤلفاته : مروج الذهب ، وأخبار الزمان ، وهو كتاب تاريخ فى نحو ثلاثين مجلداً .

كتاب « سلسلة تواريخ » وهو كتاب يتضمن رحلات فى الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق الأقصى ، وهذه الرحلات التى تضمنها ذلك الكتاب ليست لرحالة بعينه ، وإنما هى لأكثر من تاجر من تجار العرب ، الذين خرجوا إلى هذه البلاد فى القرن الثالث الهجرى .

ومثل كتاب « بُزُرْك بن شهريار » صاحب عجائب الهند ؛ وهذا الكتاب مؤلف بالعربية ، وإن كان مؤلفه فارسيا ؛ دون فيه صاحبه ما رآه وما سمعه فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأوائل القرن الرابع ، وأكثر فيه من ذكر البحار وأخبار التجارة والتجار ، ودون أخباراً فيها مبالغات كثيرة ، ويصح أن تكون المبالغات من خياله ، أو سمعها من التجار فدونها كما سمعها : فهذه طيور هائلة الحجم لا تقل عن حجم الرخ الذى قرأت عنه فى قصة السندباد ، وتلك أسماك لا تقل ضخامة وطولا وغرابة عن السمك الذى رآه السندباد ، وهكذا .

ولعل ذلك وغيره من الاعتبارات الأخرى هو الذى جعل بعض المستشرقين يرى أن هذه القصة عربية الأصل : أى أن النواة التى حيكت حولها القصة عربية ؛ ثم جعلهم أيضاً يقولون : إنها ألفت فى القرن الثالث الهجرى غالباً ، وهو القرن الذى شاعت فى أوائله ، وفى أواخر القرن الثانى — تلك القصص السابق ذكرها ، على ألسنة العامة ، ثم دونت بعد ذلك ، كلها أو بعضها .

ورحلة السندباد — فيما وردت لنا — تتألف من سبع رحلات ، اتفقت الكتب العربية وغير العربية على الرحلات الست الأولى ، أما الرحلة السابعة فإن الكتب اختلفت فيها ، وقد أوردناها فى القصة التى قرأتها على نحو ما ذكرت فى كتب القاهرة والشام .

أما برسلو فى الطبعة الألمانية فقد ذكر قصة أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن قصة القاهرة والشام .

ولعل القصة ألفت أول ما ألفت عن ست رحلات ، ثم رأى المتأخرون أن

يضيفوا إليها رحلة سابعة ، فأضيفت رحلة طبعة القاهرة على النحو المذكور في القصة ، وأضيفت رحلة برسلو على نحو آخر ؛ ولأجل أن تعرف الفرق بين الخيالين في القصتين نسوق لك ملخصاً لقصة برسلو .

* * *

ولما عزمت على عدم السفر والاشتغال بالتجارة — قلت لنفسي : كفاني ما قاسيته من أهوال ، وما لاقيت من أحداث جسام ، ولم ألبث أن انصرفت إلى قضاء وقت في اللهو واللعب ، والتمتع بالحياة البريئة ؛ وقضاء وقت آخر في استثمار مالي بالاتجار مع أهل بلدي ، ومع من يفدون إلينا من التجار الغرباء .

وبينما كنت جالساً ذات يوم — طرق الباب طارق ، ففتح البواب الباب ، فدخل غلام من غلمان الخليفة وقال :

إن الخليفة يدعوك للقائه .

فذهبت إليه ؛ ولما مثلت أمامه قبلت الأرض بين يديه ، وأقرأته السلام ؛ فرحب بي أكرم ترحيب ، وأعلى مكانتي وشرفني ؛ ثم قال لي :

يا سندباد ؛ إن لي إليك حاجة أطلب أداءها .

فقبلت يديه ، وقلت له : ما حاجة مولاي ؟ فأنا خادمه ، ورهن إشارته ؛ ويشرفني أن أكون لأمره سميعا مطيعا .

فقال لي : أريد أن تسافر إلى سرنديب لتحمل إلى ملكها كتابنا وهديتنا ، فقد كتب لنا وأهدى إلينا[1] ، وهذا جميل لا بد من رده ، وما أجمل أن يرد الجميل على يد من حمل الجميل .

---

(١) وكان الكتاب الذي أرسلها حاكم الهند إلى المأمون ترجمته «صفوة الأذهان» ، وكان من الهدايا التي أرسلها إليه حمام من الياقوت الأحمر المملوء دراً ، وزن كل درة مثقال. وفراش من جلد حية في حجم الفيل ، وفي جلدها دارات سود على قدر الدرهم ، وفي وسطها نقط بيض . وثلاثة مصليات، وسائدها من جلد طائر يقال له السمندل . ومائتا ألف مثقال من العود الهندي الرطب . وثلاث وثلاثون ألف من الكافور المحبب ، كل حبة منه مثقال الفستقة ، وأكبر من اللؤلؤة .

وما إن سمعت قوله حتى اقشعر جسمى ، وارتعدت فرائصى ، وتغير لونى ، وذكرت الخطر الداهم إن أجبت الخليفة إلى ما يريد ، وركبت البحر ؛ فإنى صممت على إيثار السلامة ، وكرهت الأسفار .

فتشجعت وأجبت :

يا مولاى : أقسم لك أنى كرهت الرحلة ، حتى أنه لتعرونى رعشة عند ذكر السفر فى البحر أو البر . لما كابدت من شدائد عظيمة ، وأخطار جسيمة ، وأهوال مفزّعة .

— وإنى يا مولاى حلفت يمينا أنى لا أغادر مدينة بغداد ، ولا أحب أن أحنث فيها .

وذكرت للخليفة بعض ما عانيت فى سفراتى الست السابقة .

فعجب الخليفة جد العجب ، وخالها حديث خرافة ، وقال :

والله ما سمعنا أن أحداً غيرك حدث له مثل ما حدث لك ؛ لا فى هذا الزمن ، ولا فى الأزمان الغابرة !

ولكنى لا أظنك ترفض أن تسافر من أجلى إلى سرنديب ، ولتكن آخر سفراتك ، وسوف يكتب الله لك السلامة ، فتعود إلينا سريعاً .

وما قصدت إلا أن نسدد لحاكم سرنديب ديناً فى عنقنا ، فإن الدين ثقيل ، ورده جميل .

فلم يسعنى إلا أن أجيب بالسمع والطاعة .

فسر الخليفة[1] ، وأمر بإحضار الهدية ، وإعداد الكتاب ، وأعطانى ألف دينار نفقات سفرى ؛ فقبلت يده ، وانصرفت من حضرته .

---

(١) الخليفة هو المأمون ، أو الرشيد ، أو معاوية الأموى - على خلاف بين المؤرخين - ورجح المرحوم أحمد زكى باشا أنه المأمون . والرسالتان المتبادلتان كانتا بين الخليفة وحاكم الهند ، أو حاكم الصين ، أو حاكم سرنديب ؛ والمرجع الذى نقلنا عنه يذكر أنها كانت بين المأمون وحاكم الهند وتحدث المسعودى فى ص٤ ج٢١ من مروج الذهب عن فيل أهدى إلى المأمون من بعض ملوك الهند ، وقيل إن هذا الفيل كان من جملة الهدية .

سافرت من بغداد إلى البصرة حيث أبحرت منها ، وسارت السفينة أياماً وليالى ، وكانت الرياح مواتية فلم نلق فى سفرنا هـذا نصبا ، ووصلنا إلى سرنديب سالمين .

ولما رست السفينة أسرعت إلى قصر الحاكم ، ومثلت بين يديه ، وقبلت الأرض ؛ فلما رآنى سر سروراً عظيما ، وقال :

مرحباً بك يا سندباد ! الله يعلم أنك أوحشتنا ، وأننا فى شوق شديد إلى رؤيتك ؛ فالحمد لله الذى جاء بك إلينا ، فرأيناك مرة ثانية ؛ ثم قام إلىّ ، وأخذ بيدى ، وأجلسنى بجواره . وأحلنى أعز جناب . ثم سألنى عن سبب حضورى ، فأخبرته قصة الهدية والرسالة ، وقدمتها إليه .

وكانت الهدية مكونة من فرس عربى أصيل ، عليه سرج مزين بالذهب ، ومرصع بالجواهر الثمينة، وجميع آلاته من عقيق ؛ وحلة فاخرة ، ومائة ثوب أبيض من قباطى مصر ، وحرير السوس، ووشى اليمن ؛ وديباج خسروانى ، وسلجم خراسانى ، وطنافس إغريقية ؛ وكأس عجيبة من البلور ، مرسوم على أحد جوانبها أسد متحفز للوثوب على صائد راكع على ركبته اليمنى ، وقوسه فى يده ، موشك أن ينطلق منها سهم قاتل ؛ ومائدة من خشب ثمين أبيض ، وفيه خطوط سود وحمر وخضر ، وسعتها ثلاثة أشبار ، وغلظها إصبعان ، وأركانها ذهب .

فض الحاكم الكتاب ، وقرأه ، فكان مما فيه :

السلام من الخليفة القوى بالله ، الذى منحه هو وأجداده درجة الشرف ، والمجد العريض — على السلطان السعيد .

و بعد ؛ فقد وصل إلينا خطابك ، فسررنا ؛ وقد أرسلنا لك كتاب «ديوان

الألباب ، و بستان نور العقول » و بعض الهدايا الثمينة النادرة ، فنرجو أن تتفضل بقبولها ، والسلام عليك[1] .

فسر الحاكم بقراءته ، وأجزل لى العطاء .

وكان حفيكرى ، عطوفاً علىّ ، كريماً فى معاملتى مدة إقامتى فى رحابه .

ولم أقصر أنا فى شكره ، والاعتراف بجميله .

ولم تطل إقامتى فى سرنديب ، فاستأذنته فى العودة إلى الوطن .

وأقلتنى وجماعة من التجار والمسافرين سفينة ذاهبة إلى البصرة .

سارت السفينة تمخر عباب البحر ، والريح رخاء ، ومرت بنا على جزائر عدة ، ولكن لم تلبث الريح أن اشتدت ، وزادت شدتها حتى أصبحت عاصفة ، فساقت المركب حيث تشاء ، وكان الربان لا يستطيع لها ردًّا ، ونحن لا نملك إلا أن نضرع إلى الله أن يلطف بنا ، وأن يهيىء لنا مخلصاً سريعاً مما نحن فيه من كرب وضيق .

ومضت أيام خلناها سنين ، ولم تكد تهدأ الرياح إلا بعد أن لاحت لنا أرض ممتدة شمالا وجنوباً إلى منتهى أبصارنا ، فسرى عنا بعض ما كنا نجد من الهول والفزع والرعب

ولكن خاب فألنا ، فلم يمض غير قليل بعد رؤيتنا للبر حتى لحقتنا قوارب لا عدد لها ، فيها قوم وجوههم كوجوه الشياطين ، يلبسون دروعاً ، ويتشحون بتروس ، وفى أيديهم حراب وسيوف ؛ فأحاطوا بنا ؛ وكل من قاومهم قتلوه أو جرحوه ،

---

(١) العدد الأول من مجلة ريفودى جيبت (مجلة مصر). صدر فى القاهرة فى أول يوليو سنة ١٨٩٤م ، وكانت هذه المجلة تصدر تحت إشراف جايار دوبلك شهرياً ، لنشر الوثائق التاريخية والجغرافية الخاصة بمصر والشرق العربى ؛ وقد توقف صدورها بعد سنة ١٨٩٧ م .

وهذا البحث متخذ من مخطوط فى دار الكتب محفوظ تحت رقم ١٠١ مجموعات ا وليس فى هذا المخطوط أى إشارة تدل على اسم المؤلف ، أو تاريخ التأليف ، لأن الورقة الأولى مفقودة ، وأما الورقة الأخيرة فإنها لا تحمل أى إشارة .

وأخذوا كل ما تحويه السفينة من مال أو بضاعة ، ونقلونا إلى جزيرة ، وباعونا بثمن بخس ، وكانوا فينا من الزاهدين .

ومن حسن حظى أننى اشترانى رجل غنى ، فأخذنى إلى منزله وأحسن مثواى ، فاستبدل ملابس جديدة بملابسى التى مزقها المردة المتوحشون ، وأطعمنى من جوع ، وآمننى من خوف ؛ فاطمأن قلبى ، وسكن روعى .

ولما توهم أنى استرددت قوتى ، قال لى : ألا تحسن صناعة أو حرفة ؟ .

فقلت له : يا سيدى ؛ إنى تاجر ، ولا أحسن غير التجارة .

فقال لى : ألا تحسن فن الرماية .

فقلت له : نعم

فأحضر لى قوساً وكنانة ملأى بالسهام ، ولما أوشك الصبح أن يسفر — ركب فيلا ، وأردفنى خلفه ، وسار بنا الفيل فى غابة كثيفة حتى وصل إلى شجرة عالية ، ثبت أصلها ، واستطالت فى الجو فروعها ، فنزلنا عن الفيل ، وترجلنا ، وأعطانى القوس والسهام ، وأمرنى بتسلق الشجرة .

وقال لى : توار بين الفروع حتى إذا طلع الصبح ، ومرّ بك قطيع من الفيلة — فسدد السهم إلى أطولها ناباً ، وارمه به ؛ فإذا أصبته وقتلته — فأت إلىّ لتخبرنى بذلك . ثم تركنى وقفل راجعاً .

فتملكنى الخوف ، وتولانى الرعب ، وظللت مختفياً بين أفرع الشجرة حتى مطلع الشمس ، وانبعثت الوحوش من مرقدها ، وأخذت تتجول فى أرجاء الغابة ، وجاءت الفيلة ، وأخذت تمر بى من قريب أو بعيد ، وطفقت أرميها بالسهام حتى أصبت أحدها فى مقتل ، فخر صريعاً . ولما جاء المساء ، وأوت الوحوش إلى أوكارها — هرولت إلى سيدى ، وأخبرته بصيدى ، فسر لذلك سروراً عظيما ، واستقبلنى أحسن استقبال ، وأرسل نفراً من أتباعه لإحضار الفيل المقتول .

واستمر الحال على ذلك عدة أيام : أذهب إلى الشجرة فى غلس الظلام ،

وأختفى بين فروعها . وأصطاد فيلا ؛ فيرسل سيدى من يحمله إليه .

و بينما كنت مختفياً فى الشجرة ذات يوم إذ أقبل عليها قطيع من الفيلة ، كانت تصـ ـ وتزأر حتى خيل إلى أن الأرض زلزلت زلزالها ، ولما اقتربت من الشجرة ، أحاطت بها ، وحاصرتها محاصرة الجيش القوى الغالب ، لعدوه الضعيف المغـلوب .

ثم انفرد من بينها أضخمها جثة ، وأعظمها ناباً ، وأطولها خرطوماً — واتجه نحو الشجرة .

ولما وصل إليها ، لف حولها خرطومه ، وجذبها جذبة قوية ، فاقتلعها من جذورها ، وأمالها ؛ فسقطت على الأرض ، فى شبه غشية من الرعب والفزع .

اقترب منى الفيل العظيم ، ولف خرطومه حولى ، ورفعنى إلى ظهره ، وانطلق فى الغابة ؛ فتبعه بقية الفيلة ؛ ولما وصل إلى مكان فى وسط الغابة رفعنى من على ظهره ، وألقانى على الأرض ؛ وتركنى فى هذا المكان ؛ وعاد ومعه الفيلة .

ولم أدر : كم من الوقت مضى قبل أن أثوب إلى رشدى !

ولما أفقت وجدت نفسى بين عظام مئات الفيلة ، فعلمت أن الفيلة حملتنى إلى مقبرتها لتدلنى على معين لا ينفد من العاج الذى من أجله أقتلها ، فعسى أن نعف عنها ، ونكف عن الاعتداء عليها ؛ فقد وجدنا حاجتنا فى مقبرة أمواتها ، فلا داعى لقتل أحيائها ؛ و إن الحصول على أنياب الموتى لا يرهقنا ، ولا يكلفنا تربصاً فوق الشجر ، ولا تعرضاً للخطر ، ولا إطلاقاً للسهام .

تركت مقبرة الفيلة ، وسرت نحو مدينة سيدى ، ولما وصلت إليها ذهبت إلى داره ، وأفضيت إليه بقصتى ، فكاد يجن من الفرح ، وقال لى : لقد ظننت أنى فقدتك إلى الأبد فحزنت عليك ، لأنك لما لم ترجع ، سرت إليك ، فوجدت الشجرة مقتلعة من جذورها ، فطوفت فيما حول الشجرة من الغابة فلم أعثر لك على أثر ، فعدت أدراجى حزيناً آسفاً ، فالحمد لله على سلامتك .

ثم قال لى : هل تستطيع أن ترشدنى إلى هذه المقبرة ؟ فقلت : نعم؛ إن ذلك علىّ هين ، فقد لحظت الطريق ، وعرفت معالمه .

فأعد حملة من أتباعه يركبون الفيلة ، وركب فيله وأردفنى خلفه ، وسرت بهم فى دروب الغابة حتى وصلنا إلى المقبرة ؛ فلما شاهدها سيدى كاد يجن من الفرح ، وأخذ يشد على يدى ، ويقبل جبهتى ، وأمر خدمه وأتباعه أن ينتقوا أحسن الأنياب ، وحملوها على الفيلة ، وكررنا راجعين ، وأعاد الحملة مرات حتى امتلأت مخازنه بالسن .

وقال لى سيدى ذات يوم : يا بنى ؛ لقد هديتنى إلى ثروة طائلة لم أبذل جهداً فى الحصول عليها ، وقد كنا قبل ذلك نعتدى على الفيلة ونقتلها ؛ وكنا نعرض أنفسنا لخطر جسيم ؛ فكثيراً ما كانت تهيج ، وتدوس عشرات من أتباعنا ، انتقاما لقتلاها ؛ فبارك الله فيك ، وخير ما أهبه لك حريتك ، فأنت طليق حر ، وإن شئت أقمت معنا عزيزاً كريما .

فقلت له ، وقد ترقرقت فى عينى دمعة الفرح والسرور :

إنى أحمد الله أن وفقنى إلى أن أعتقتنى ، وفككت رقبتى ، وإنى ، وإن كنت لم أمل صحبتك ، أذكر لك أن الوطن غال ، عزيز علينا ؛ أقمت به شرخ الشباب منعما ، وقد خلفت هناك أهلى وولدى ومالى ؛ وإن عدم عودتى إليهم يسبب لهم الحسرة واللوعة ، ويقضون ما يعيشون من أيام فى حزن دائم ، وألم مقيم .

فقال سيدى : لقد صدقت ، ولو زعمت غير ذلك لظننت بك الظنون ، فأنت مأذون لك بالسفر متى شئت ، وقد كنت من الصابرين ، فاصبر حتى يحل موسم بيع السن ؛ فإن للسن عندنا سوقا كل عام ، ينسل إليها التجار من كل حدب وصوب ، من وراء البحار ، ومن خلف الجبال ، فعسى أن تأتى سفينة من بلادك ، فتعود عليها ، وقد اقترب وقته .

وحل موعد السوق وجاء التجار ، وباعوا ما حملوا ، واشتروا بثمن ما باعوا سنا .

وجاء سيدى يوما ، وقال لى : إننى عثرت على جماعة من التجار من بلادك ، واتفقت معهم على أخذك ، ودفعت لصاحب السفينة أجر سفرك فيها .

ثم أعد لى أحمالا من جيد السن ، وهدايا ثمينة ، وأمر بنقلها إلى السفينة .

ثم خرج معى سيدى ، ومعه بعض خواصه وأتباعه إلى السفينة لوداعى ، وحينما كانت السفينة تقلع عانقنى سيدى ، وسلم علىّ ، وودعنى أحر وداع .

وأقلعت السفينة ، وطفقت ترسو على جزيرة ، وتقلع منها ، وتذهب إلى أخرى وتغادرها ؛ والتجار ينزلون إلى مدنها ويبيعون ويشترون ويتعوضون ، وكنت أحذو حذوهم ، أبيع وأشترى وأتعوض .

ثم رست السفينة على ميناء البصرة ، فاشتريت بغالا وجمالا ، وحملت تجارتى واخترقت الصحراء إلى أن وصلت إلى شاطئ الفرات ، وسرت فى أرض الجزيرة إلى أن وصلت إلى بغداد ، مدينة السلام ، وذهبت إلى دارى فاستقبلنى أهلى فرحين .

وبعد أن استرحت توجهت إلى قصر الخليفة ، وطلبت الإذن بالمثول بين يديه .

فاستقبلنى بشوق ، وقصصت عليه قصة رحلتى ، فسر لنجاتى ، وعجب من أحداث القصة ووقائعها ؛ وأمر أن تدون بحروف من ذهب .

هذا ما حدث لى فى أثناء الرحلة السابعة ، وهى آخر رحلاتى .

والحمد لله ، على كل نعمة يوليها ، وكل شدة يصرفها ويجليها .

* * *

قرئت قصة السندباد على أنها كتاب مستقل ، ووجدت منه نسخ قديمة فى بعض المكتبات فى باريس وغيرها ؛ وقرئت على أنها قصص ألف ليلة وليلة ؛ واهتم الغربيون بها ، وشاعت بين أوساط المثقفين من أبنائهم ، وأقبلوا على قراءتها إقبالا عظيما .

رأى ذلك بعض الروائيين من كتاب الإنجليز والفرنسيين ، فأغراهم ذلك بالإقبال على التأليف على نسقها ؛ فألفوا كتبا للرحلات على نحو هذه القصة .

ومن أسبق ما ألف فى هذا النوع رحلات جاليفر .

ورحلات جاليفر هذه تتألف من بضع رحلات كما تألفت قصة السندباد ، منها رحلة إلى بلاد الأقزام ، يسافر فى هذه الرحلة إلى البحار الجنوبية ، فيبحر من ميناء بريستول فى مايو سنة ١٦٦٩م ، وكانت الرحلة طيبة سعيدة ، ولكنه بعد أن يجتاز البحار الجنوبية ، ويتجه نحو الهند الشرقية — تصادفه ريح عاصفة عاتية ، فتدفع المركب إلى صخرة ناتئة فى البحر ، ويرتطم المركب بالصخر ، فينشق ويتصدع ، ثم يغرق فى الماء ، فيلجأ هو ورفاقه الستة إلى طوف النجاة ، ولكنه لم يحملهم ، فغرقوا ، وبقى هو متعلقا به ، ودار ببصره هنا وهناك ، فوجد نفسه وحيداً ، يغالب الموج ، والموج يغالبه ، وما زال كذلك حتى انتهى إلى الشاطئ ، وقد كده الموج ، وأضناه التعب ، وكان الوقت ليلا ، فأخذ يتلفت يمينا وشمالا ، فلم ير أحدا ، أوخيل إليه أنه لايرى أحداً لشدة ما كان عليه من جهد وإعياء .

وهكذا ظل فى رحلته هذه يلقى ما يلقى ، ويعانى ما يعانى ، حتى استطاع أن يعود إلى وطنه .

ومن رحلاته أيضاً رحلة إلى بلاد العمالقة .

خرج فى هذه الرحلة بعد عودته من رحلته إلى بلاد الأقزام بوقت قصير ، فإن حبه للمغامرات ، وميله إلى ركوب الأخطار ، وخاصة إذا كان يقدرلنفسه السلامة ، أنساه ماقاساه فى رحلته الأولى .

فإنه خرج إلى البحار الجنوبية نفسها ، ودار حول رأس الرجاء الصالح ، وصعّد فى البحر الشرقى حتى وصل إلى مضيق مدغشقر ، حيث هبت عليه رياح غربية استمرت عشرين يوماً تبعتها عاصفة شديدة إلا أنها لم تحطم المركب ، ولم تجمح به ، بل قادته إلى بَرّ رسَوْا عليه ، بعد أن نفِد ماؤهم ، واشتد ظمؤهم .

أرسل الربانُ جاليفر ورفاقه ليبحثوا عن الماء ، ولكنه تاه فى الأرض ، وانفرد عنهم ، فلم يهتدوا إليه ، ولم يهتد إليهم ، فعاد أدراجه إلى حيث ينتظرهم الربان، فوجد رفاقه قد عادوا إلى المركب ، وركبوه ، وأقلعوا به وأسرعوا ، حينما رأوا عملاقا هائلا يتبعهم .

وهكذا ظل جاليفر سابحاً فى خياله . حتى لقد صور نفسه يوماً جالساً فى كوخه الخشن على شاطئ البحر . فوجد المنزل يرتفع إلى أعلى . فأدرك أن طائراً هائلا قد اختطف الكوخ وما فيه . واندفع فوق البحر . ثم أحس أن الكوخ قد سقط فى الماء ، يطفو و يغطس حتى رآه بعض البحارة فأنقذوه .

ومن رحلاته أيضاً رحلة إلى بلاد : عقلاؤها خيولُها ،

يخرج فى هذه الرحلة فى سفينته على عادته . ولكن يموت كثير من رجاله لأنهم أصيبوا بداء يجعلهم يدفعون أنفسهم إلى الماء دفعاً ، فاستبدل بهم غيرهم من رجال الجزر التى كان يمر عليها، ولكن معاونيه الجدد كانوا من القراصنة، فتألبوا عليه ذات يوم ، واندفعوا إلى حجرته ، وقيدوه بالسلاسل ، ونصبوا عليهم ربانًا من بينهم .

أما الربان الجديد فإنه أمر أن يلقى جاليفر فى أول شاطئ يلقَوْنه ، ولم يلبثوا أن وصلوا إلى شاطئ . فأخرجوه إليه ، ولم يعطوه غير قليل من الزاد ، وتركوا له سيفاً .

عاد على نفسه باللوم والتأنيب ، لأنها هى التى تدفعه إلى الخروج فى تلك الرحلات بعد أن يثوب .

فكره وطنه وقومه ، وصمّمَ عزمه على أن يستقر فى إحدى الجزر ، وألا يعود إلى بلاده ، و إن تهيأت له أسباب العودة .

فنزل فى إحدى الجزر ، وأقام فيها مدة ، يرى ما يرى ، و يسجل ما يسجل ، حتى جاء رجال من بلاده ، وحملوه معهم ، وعاد إلى الوطن .

هذه إشارة وجيزة جدًّا لبعض رحلات جاليفر ، ونجده يتفق مع رحالتنا السندباد فى جوهر الفكرة ، وفى أصل الموضوع .

فكلاهما يخرج فى رحلة بحرية ، ثم تصادفه الأهوال ، ويتعرض للغرق ، ويخلص من بين مخالب الموت ، وتخدمه المصادفات المحضة غالباً ، وتهيء له أسباب النجاة .

وفى أثناء ذلك كله يروى أشياء عجيبة ، يلعب الخيال فيها دوراً عظيما .

إلا أن الفرق بين جوهر الرحلتين ، يساوى الفرق بين حقيقة الزمنين اللذين أُلفتا فيهما .

فرحلات السندباد ألفت — فيما يزعمون — فى القرن الثالث الهجرى ، وقيل قبله ، وقيل بعده ، أى فى القرن التاسع الميلادى

ورحلات جاليفر ألفت فى القرن السابع عشر الميلادى . ونجد بين الزمنين أكثر من سبعة قرون .

لذلك لم يكن عجيبا أن يكون السندباد همه أن يقص أخبار رحلاته هذه لمجرد القصّ، يقصها للتسلية ، وقطع الوقت، وشغل الناس عن أمور ، قد تكون سياسية ، أو لصرفهم عن الاستمرار فى المناقشات البيزنطية حول مسألة دينية ، أو غير هذه وتلك من المسائل التى كانت تشغل أذهان الناس فى العصر الذى وضعت فيه الرحلات؛ ومع ذلك فسواء أقصد المؤلف أم لم يقصد فإن هذه القصص تغرس فى نفس الإنسان فضيلة الصبر على المكاره ، وتقوى إيمانه بالله ، وتجعله يستسلم لقضائه وقدره .

ومن أجل هذا لا نستطيع أن نقول : إن السندباد حينما كا يقص رحلاته كان يريد أن يكون ناقداً سياسيا . أو ناقداً اجتماعيا ، أو ناقداً اقتصاديا ، أو غير ذلك .

أما جاليفر الذى وضع رحلاته فى القرن السابع عشر، أى فى عصر كانت فيه الثقافات تختلف عن ثقافات عصر السندباد اختلافا كبيراً ؛ وكان يقص رحلاته

على جماعات من الناس لهم ثقافات ، وعادات ، وبيئات ، تختلف اختلافا قليلا أو كثيراً عن ثقافات رجال السندباد ، وعاداتهم ، وبيئاتهم .

وجاليفر نفسه غير السندباد ثقافة ، و بيئة .

ولذلك نجد جاليفر فى رحلاته إذا رجعت إليها كاملة — ناقداً اجتماعيا وسياسيا بارعا؛ فهو لم يرحل لمجرد الارتحال ، أو لما فى رحلاته من لذة وألم ؛ ولكنه رحل ليقول لقومه ، أو لمجتمعه الذى نشأ فيه : أنتم ناس فيكم عيوبٌ جمة ، وصورها لهم فى تلك الصور الرمزية الجميلة ، التى تجعلهم يتنبهون لها ، و يفطنون لما فيها ، فينتفعون بها ، من غير أن يكون فى ذلك إيلام للنفس ، و إحراج لأولى الأمر .

وذلك أن جوناثان سويفت صاحب جاليفر كان ناقدا اجتماعيا ، وسياسيا بارعا ، وكان لانتقاداته أثر عظيم جداً فى توجيه السياسة الإنجليزية فى هذا العصر، وعرفه الشعب ، وافتتن به .

فإنه نظر إلى العالم بمنظار أسود ، وصوره شقاء كله ، وجعله نيرانا يأ كل بعضها بعضا . فهو مرة فى بلاد الأقزام ، ومرة فى بلاد العمالقة ، وحينا فى بلاد الفلاسفة ، وحينا آخر فى بلاد السحرة .

ومهما يكن من شىء فإن الصورة العامة التى كونها جاليفر لرحلاته ؛ هى عينها الصورة العامة التى كونها السندباد لرحلاته ؛ أما ما بين الصورتين من تغاير فى الأجزاء الداخلية فقد نشأ من اختلاف الزمن الذى نشأ عنه اختلاف الثقافة ، ثم من اختلاف البيئة أيضا كما قدمنا .

* * *

أما روبنسن كروزو فقد ألفها دانيل ديفو فى أوائل القرن السابع عشر .

ركب روبنسن كروزو السفينة ، ولم تكد السفينة تمعن فى البحر حتى ثار الماء واضطرب ، وعلا الموج واصطخبَ ، وظل هو ورفاقه فى البحر يرضى حينا ، و يغضب أحيانا ، حتى ابتلع الموج السفينة ، ونجا هو ورفاقه .

ولكن شيطانه ألح عليه فى استئناف رحلة أخرى للاتجار ، فاتجر و ربح .

ثم خرج فى رحلة ثالثة ، فخرج عليه القراصنة ، فقتلوا بعض رفاقه ، وجرحوا الآخرين ، ونجا هو ، وأعجب به شيخ القراصنة ، فاتخذه خادما خاصا له .

فكر فى الهرب ، و بعد سنتين سنحت له الفرصة ، فهرب فى سفينة .

لجأ إلى الشاطئ ليستريح هو ورفيق له ، ولكن الوحوش التى رأياها جعلتهما لا يبرحان الشاطئ ، ولا يتجولان فى الداخل؛ ومع ذلك فقد استطاعا أن يصطادا أرنبا ، و يحضرا ماء ، ويقتلا أسدا .

ثم استأنفا رحلتهما الشاقة المخيفة ، وانتهت بهما إلى البرازيل ، وعرف ناساً كثيرين فيها ، وذكر لهم غينيا التى مر بها من قبل ، وكيف اتجر فيها وربح ، فرغب الناس فى الخروج معه إليها متجرين وهو معهم .

اضطرب الجو ، وثار الماء ، وجنحت السفينة إلى كثيب من الرمل ، ثم أغرق الموج الجامح السفينة والركاب ، ولم ينج أحد غيره هو ، حيث قذفته الأمواج إلى صخرة كبيرة ، استطاع بعدها أن يخرج إلى الشاطئ ، بعد أن جمع من حطام السفينة ألواحا ، وكون منها مركبا صغيراً ، وأخذ بعض الطعام والثياب والحَبّ والسلاح .

عاش فى تلك الجزيرة التى خرج إليها ، وصنع لنفسه كوخا يأوى إليه ، وكان كلما لاحت له فرصة ذهب إلى السفينة ، وأخذ منها بعض ما بها .

وهكذا ظل دانيل ديفو يأخذ بيد صاحبه روبنسن كروزو حينا ، ويسلمه للشقاء أحيانا ، ويجعله تارة محاربا ، وطوراً مسالما ؛ وإن أمنه على نفسه وحياته مرة ، فإنه يفزعه ويزعجه مرات ؛ وإن أشبعه يوما أجاعه أياما ؛ وإن بسم له الحظ فترة ، عبس له شهورا .

وعلى الرغم من هذه السنين التى قضاها قلقا ضجراً ، فإنه عاد إلى بلاده غانما سالما .

ومن ذلك تعلم أن روبنسن كروزو رحالة كالسندباد ؛ كلاهما كان يركب السفينة ، ويسير فى البحر ، ويطغى عليها الماء ، ويغرقها الموج أو يحطمها ، أو يجعلها تجنح ، أو يسلمها إلى شاطئ مجهول ، أو غير ذلك ؛ ثم يصيب الرفاق كلهم أو أكثرهم سوء : من موت ، أو أسر ، أوتيه ، أو نحو هذا ؛ وينجو البطل بحياته نجاة ، خير منها الموت أحيانا ، وتصادفه بعد ذلك العقبات فيجتازها عقبة وراء عقبة ، حتى تقدر له النجاة الحقة بالعودة إلى الوطن فى يسر ورخاء .

إلا أن روبنسن كروزو كان يذهب إلى جهات معلومة محدودة ، فيصل إليها فى أزمنة معلومة محدودة أيضا : وكان يقيم هنا شهراً ، ويقيم هناك عاماً أو أعواماً ، وكان يعلم عدد السنين والحساب .

وروبنسن كروزو عرف كيف يعيش وحيدا فى بلاد لا أنيس بها ولا جليس ، واحتال على إنبات القمح والشعير ، وعرف أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده عيشاً يطمئن إليه، ويسعد به ، ولكنه يضطر إلى ذلك اضطراراً إذا ألجأته إليه ظروفه .

ووجد فى بعض رحلته قطعا ذهبية ثمينة ، ولكنه كان ينظر إليها ويحتقرها ، وأوشك أن يقذف بها فى البحر ، لولا أنه آثر أن يحتفظ بها ، فلعله يجد لها فى مستقبل أيامه منفعة .

والسندباد فى بعض رحلاته صادفه شىء شبيه بهذا : فهو كان يجد أمامه كثيراً من الجواهر واليواقيت ، والذهب ، والفضة ، وكان يطؤها بقدميه ، لأن شربة ماء يطفىء بها ظمأه ، أو كسرة خبز يمسك بها رمقه — أحب إليه من أن يضعوا فى يمينه الشمس ، وفى شماله القمر ، ويملكوه جبال الأرض ذهبا .

* * *

ما كاد يظهر هذان الكتابان : رحلات جاليفر وروبنسن كروزو حتى تهافت على قراءتهما جميع الطبقات ، أو كما يقولون : من غرفة رئيس الوزراء إلى غرفة

المرضع ، وذاعا ذيوعاً عظيما جدًا ، واشتهر أمرهما ، وترجما إلى جميع لغات العالم المشهورة .

لم يكد الكاتب الفرنسى جول فرن يعرف خبر هذين الكتابين ، ويعرف السر فى ذيوعهما وانتشارهما — حتى بادر إلى تأليف كتيبات للصبية الناشئين فيها رحلات ، وفيها خيال خصب جميل ، جذب الصبية إليها ، وجعلهم يقبلون عليها ، ويقرءونها فى شغف وسرور ، ولم يكن المصدر الأول الذى أوحى إليه بتأليف هذه الكتيبات هو جاليفر وروبنسن كروزو فحسب ، ولكنه رجع إلى ألف ليلة وليلة ، وقرأ قصة السندباد ، واستمد منها ؛ فكانت له معيناً لا ينضب .

أما الكاتب ويلز فإنه كان فيما يؤلف من قصص يأخذ من السندباد أخذاً صريحاً واضحاً ، وكان لقصة الرخ التى ذكرها السندباد فى سفرته الثانية أثر أى أثر فيما كتب .

من هذا كله ومن غيره مما لم نذكره ، نعرف ما كان لقصة السندباد من أثر عظيم فى الأدب الغربى ، إما بذاتها ، وإما بما اشتق منها ، وألف على نسقها من قصص الرحلات خاصة .

أما نحن الشرقيين فلم تبلغ عنايتنا بهذه القصة مبلغ عناية الغربيين ، ولم يفطن لها المربون ، ولا المهيمنون على شئون التربية والتعليم ، ولا الآباء والأمهات كما فطن الغربيون .

وكذلك لم يفطن الروائيون الشرقيون أنفسهم إلى ما يجب أن يكون لهذه القصة من أثر فى وضع قصصهم .

ولعلنا بعد ذلك نكون قد نبهنا لما لهذه الرحلات من أثر ، ويسرنا أن تصبح موضع العناية ، حتى يقبل عليها الناشئون من أبنائنا إقبال الناشئين من أبناء الغربيين عليها ، وعلى ما نبع منها من قصص وروايات .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٤٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3235-1

١ / ٩٠ / ١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف